أعلام مبرّزون

ليون تولستوي



أعلام مبرزون

من الشرق والغرب

ليون تولستوي

١٨٢٨ - ١٩١٠م

دار الشرق العربي

بيروت شارع سورية. بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١- الإسكندر الأكبر
٢- هنيبعل
٣- أبو العلاء المعري
٤- ابن بطوطة
٥- ابن خلدون
٦- كريستوف كولومبوس
٧- وليم شكسبير
٨- نابوليون بونابرت
٩- ليون تولستوي
١٠- المهاتما غاندي

كتبها وأشرف على اصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

مقدمه

يُعَدُّ **تولستوي** من كبارِ أعلامِ الدُّنيا المُبرِّزينَ العباقِرَةِ الخالدينَ، بما خلَّفَ للإنسانيَّةِ من تُراثٍ فنيٍّ قصَصيٍّ، ومؤلَّفاتٍ فِكْريَّةٍ ودينيَّةٍ، هي دون رَيْبٍ من روائعِ الآثارِ التي تضمنُ لصاحِبِها البقاء والشُّهرة والخُلْودَ، أمَّا كفاحُهُ الطويلُ للقَضَاءِ على الظُّلْمِ، وتحقيقِ المحبَّةِ بين الناسِ، وعدمِ مقابَلةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، ونضالُهُ البطوليُّ المُسْتميْتُ ليردَّ إلى المسيحيَّةِ بساطَتَهَا الأولى، ويدفعَ الحاكمينَ في روسية إلى الالتزامِ بتعاليمِ المسيحِ في الحُبِّ والتسامُحِ والسَّلامِ، أمّا كفاحُهُ الطويلُ هذا فقد جعلَ منه أعظمَ رجلٍ في عَصْرِهِ، حتى عُدَّ **«رَجُلَ العالمِ»** و **«نبيَّ العصرِ»** و **«عبقريَّ روسية الأعظمَ في القرنِ التاسعَ عشرَ»**، وحَكَمَ النّقادُ بأنَّ لأفكارِهِ وتعاليمِهِ أكبرَ الأثرِ في انْفِجَارِ الثورةِ الاشتراكِيَّةِ الكُبْرَى في وطنِهِ، بعدَ سبعِ سنواتٍ من وفاتِهِ، وكان قد **تنبأ باندلاعِ الثورةِ فوقَ الأرضِ الروسيَّةِ**، مُحاولاً أنْ يوقظَ الضمائرَ الغافِيَةَ على حقيقةِ الوضعِ الاجتماعيِّ المُظْلِمِ في بلادِهِ، مُنددّاً بالفَسَادِ والظُّلْمِ، ومُتصَدِّياً بكُلِّ شجاعةٍ

وتحدٍّ للاستبدادِ الطويلِ، في روسية المقهورَةِ تحتَ ليلِ القيصريَّةِ الأسْودِ.

وفي الصفَحات التاليَةِ نحاولُ تقديمَ **موجزٍ لسيرةِ هذا العبْقريِّ المُبرِّزِ الفنّانِ المُفكِّرِ المُناضِلِ**، في مراحلِ حياتِهِ وكفاحِهِ، خلالَ عُمرِهِ المديدِ، إلى أنْ يقضِيَ نحبَهُ في نهايةِ العشرِ الأوَّلِ من القرنِ العشرينَ، وقد جاوزَ الثمانينَ مِنْ حياتِهِ الخِصْبَةِ والغنيَّةِ بالإنتاجِ والعطاء والنِّضَالِ.

البَابُ الأَوَّلُ

روسيّةُ القيصريةُ

في عصرِ تولوستوي

— ١ —

أَقْبلَ فجرُ القرنِ التاسعَ عشرَ على أوْرُبَّةَ ورُوسِيَّةُ ما تزالُ تعيشُ في الظَّلامِ، تحتَ حُكْمِ ليلِ القياصِرَةِ الطويلِ، فكان خمسونَ مليوناً من الزُرّاع والفلاحينَ فيها عبيداً للقيصرِ ومُلاَّكِ الأرضِ من النُّبَلاء ورجالِ الكنيسةِ، **وقد أَسْهَمَتْ حَمْلَةُ نابوليونَ الفاشِلَةُ على روسيةَ في إيقاظِ النائمينَ على الجَوْرِ والعبودِيَّةِ**، ولكنَّ القضاء على نابوليون عزَّزَ مكانَةَ القيصرِ **الإسكندرِ الأولِ**، فظلَّ دُعاةُ الحُرِّيَّةِ إلى نهايةِ الرُّبُعِ الأولِ من القرنِ يترقَّبون عَبَثاً انحسارَ الظَّلامِ! وفي عامِ ١٨٢٥ تَوَلّى **نيقولا الأوّلُ** عرشَ القياصِرَةِ، بعدَ وفاةِ أبيهِ، فنَشِطَتْ مُقاومةُ

القيصرِ الجديدِ، وكانَ صارماً قاسياً، **فَقَضى على حركةِ المتمرِّدينَ** بعُنْفٍ وقسوةٍ (وتُعْرَفُ بحركةِ **الديسمبريينَ**، لقيامِها في ديسمبرَ ـــ كانونِ الأَوَّلِ ـــ ١٨٢٥) **ولقيَ كثيرٌ من أفرادِ الجمعياتِ السِّرِّيةِ حُتوفَهُم**، وبَسَطَ القيصرُ رقابتَهُ على كُلِّ ما يُنْشَرُ، وظَنَّ أَنَّه قد قضى على كُلِّ ميلٍ إلى الحريةِ، عن طريقِ أعوانِهِ وزَبَانِيَتِهِ من رجالِ الشُّرْطةِ السِّريةِ، ولكنَّ العاصِفَةَ ظلَّتْ ثائرة في القلوبِ، تترقَّبُ الفُرَصَ السانحةَ للظُّهورِ، وجاءتِ الفُرْصَةُ مع **(حربِ القَرْمِ)** عام ١٨٥٣ حين أصبحتْ **جيوشُ انكلترةَ وفرنسةَ وتركيةَ تُحاصِرُ جيشَ القيصرِ**، وهو عاجزٌ عن الصُّمودِ، وأدركَ القيصرُ أَنَّ شعبَهُ المقهورَ قد فَقَدَ حماستَهُ لهُ، وأَنَّ النقمةَ تغلي في الصدورِ، وقد عبَّر الناقمونَ عنْ غضبِهِم في

المنشوراتِ السريةِ السَّاخِرَةِ التي كان الشعبُ يتداوَلُهَا وجاء في واحدٍ منها:

«يقولُ القيصرُ: لقد جعلني اللهُ حيثُ أنا مُهيْمِناً على روسية، فعليكمْ أَنْ تنْحنُوا راكعينَ أمامي، فإنَّ عرشي هو كُرْسِيُّهُ، ولا تُعَنُّوا أنفسَكُم بالمصالحِ العامَّةِ، فإنّي أفكّرُ من أجلِكُم، وما أنا في حاجةٍ إلى من يُشيرُ عليَّ، فإنّ اللهَ يُلهِمُني الحِكْمةَ، فافخَروا أَيُّها الروسُ بأنكم عبيدي.

ولقد أَنْصَتْنَا نحنُ معشرَ الروسِ إلى هذهِ الكلماتِ في خشوعٍ عميقٍ، وسلّمنا بها طائعينَ، فماذا كانتِ العاقبةُ؟

ها نحنُ أولاء ــ واأسفاهْ ــ قد أخِذْنا على غِرّةٍ، وأحِيطَ بنا ونحنُ غافلونَ.. **أفيقي يا روسية! التهمكِ الأجانبُ من أعدائِكِ، وحطّمَتْكِ**

العبوديّة، **أفيقي من نومِكِ الطّويلِ**،**وقِفي ثابتةً هادئةً أمامَ عرشِ الطاغيةِ**، واسْأليْهِ أنْ يَقدّم لكِ اليومَ حساباً عن الكارثةِ القوميةِ!»

وعندما سَقَطَ حِصْنُ سباستبول اهتزّ عرشُ القيصرِ، وقضى نيقولا الأولُ نحبَهُ بعد ثلاثينَ عاماً من حُكْمِهِ الأسودِ المُظْلِمِ.

وولِيَ **الاسكندرُ الثّاني** العرشَ سنَةَ ١٨٥٥ وكَانَ ذا نزعةٍ إنسانيَّةٍ ورغبَةٍ صادِقَةٍ في الإِصلاحِ، فعفا عمَّنْ بَقِيَ حيّاً منَ المحكومينَ مِنَ المتمرّدينَ الديسمبريينَ، وسمَحَ بنصيبٍ من حُرِّيَّةِ النشرِ، وأَقْدَمَ على تحريرِ رقيقِ الأرضِ عامَ ١٨٦١، وهذا أجلُّ عَمَلٍ في إصلاحاتِهِ. غيرَ أنَّ حماسةَ الإِسكندرِ الثاني للإِصلاحِ أخذتْ تَفْتُرُ، لِمَا رأى من ثورةِ البُولنديينَ، ولخوفِهِ من تقلُّصِ سُلْطتِهِ الفرديَّةِ أمامَ

مُطالَبَـةِ الشعبِ كُلِّهِ، بإقامَةِ نظامٍ تمثيليٍّ نيابيٍّ، وكان المستنيرونَ من رجالِ الأَدَبِ والثَّقافةِ والصِّحافَةِ والفلسفةِ يدعونَ إلى التخليّ عَنِ **التقاليدِ البالِيَةِ العتيقَةِ**، ويريدونَ أنْ تأخُذَ روسيةُ الطريقَ الذي سلكتْهُ أوربةُ في الفِكْرِ والحضارةِ، **لِتُصْبحَ دولةً حديثةً** وتحققَ مثلَ ما حقّقَهُ الغربيونَ مِنْ مظاهرِ التقدُّمِ المادِّيِّ المتواصلِ. ومن صفوفِ هؤلاء المثقفينَ المُسْتَنِيْرِين **ظهر حزبٌ ناقِمٌ ثائِرٌ على كُلِّ شيءٍ**، يمثّلُ السلبيةَ المُطلقةَ، ويدعو إلى التحرُّرِ من الماضي، والتخلُّصِ من كلِّ عاطفةٍ وعُرفٍ وتقليدٍ، لأنّ ذلك هو ما يَسْتَعْبِدُ عقولَ البشرِ ويمنَعُهُمْ عَن التقدُّمِ، **ووجدَ هذا الحزبُ الفوضويُّ رَوَاجاً لأفكارِهِ في أوساطِ الشّبابِ.** وكانتْ جماعات أخرى في روسيةَ قد انْتَهَى بها اليَأْسُ إلى اللُّجُوء إلى

العُنْفِ واغْتِيَالِ رجالِ السُّلْطَةِ منْ أعْوانِ القيصَرِ، وهكذا أصبحَ العُنفُ والاغتيالُ وسيلةَ جماعَاتٍ كثيرةٍ لمواجَهَةِ الاضْطِهَادِ والإرهَابِ الحكوميِّ، **وتعدَّدَتْ المحاولاتُ لاغتِيَالِ القَيْصَرِ نَفْسِهِ**، بعد أنْ أصبحَ ينفِرُ منَ الإصْلاحِ وَيَعُدُّهُ طريقاً إلى الفَوْضى، وأقامَ القَيصرُ حُكماً عَسْكَرِياً فيْ أقالِيمِ روسيةَ، وأصبحتِ الفِتَنُ والقَلاقِلُ تَتكرّرُ في شَوارِعِ موسكو وبطرسبورغ، وصارتِ الجماعاتُ السريةُ تغتالُ أعوانَ الحكومةِ والقَيصرِ في وَضَحِ النّهارِ، وأحسَّ الإسكندرُ الثاني بالخَطَرِ، فأرادَ أنْ يحتكمَ إلى مجالسِ المُقَاطَعاتِ، فلم تَجدْ هذهِ عِلاجاً للوَضْعِ بغَيْرِ إعطاء الشَّعْبِ حُرَّيةَ الرأيِ والفِكرِ، فلا يُمكِنُ أنْ تُعْرَفَ شَكاوَى النَّاسِ إلاّ إذا أتيْحَتْ لهمُ حُرِّيَّةُ التعْبيرِ عنْ تلكَ الشَّكاوَى! والإسكندرُ الثاني

لا يمكنُ أنْ يَرضَى بهذا العِلاجِ، فهو طاغِيَةٌ وَلا يتنازَلُ طاغيةٌ عن سُلطانِهِ باخْتيارِهِ!

ولهذا كانَ لا بُدَّ لمحاولاتِ اغتيالِ الطاغِيَةِ أنْ تَتَكرَّرَ، وإذا لمْ ينجحْ بَعضُها، فَقَدْ نَجَحَتْ آخِرُ تلكَ المحاولاتِ بإلقَاء قُنْبُلَتَيْنِ على مَوْكِبِهِ، **فَخرَّ الطاغِيةُ على الأَرْضِ بدمَائِهِ،** في يومٍ منْ أيامِ آذارَ ١٨٨١، **وأعْلَنَ الثائِرونَ أَنَّهمُ لنْ يكفُّوا عن العُنْفِ حتّى تتحقَّقَ مطالِبُهُمْ** بإطلاقِ الحرياتِ للصِّحافَةِ والاجتماعاتِ وإقامةِ مجلسٍ وطنيٍّ يُنْتَخَبُ أعْضَاؤهُ بالاقْتِراعِ العامِّ!

ولـكنَّ ليلَ روسيةَ ما يزالُ مُظْلِماً، والفجرُ بعيدٌ بعيدٌ!

ـ ٢ ـ

وتَوَلّى **الإسكندرُ الثّالثُ** عرْشَ القياصِرَةِ بعدَ اغْتيالِ أَبيْهِ، **وَبدأَ عهدَهُ بتَنْفِيذِ أحْكامِ الإعْدَامِ بالقَتَلَةِ والمتآمرينَ** منْهُمْ، وكانَ القيصرُ الجَديدُ جاداً في ملاحَقَةِ الأَحْرارِ والتَّشْدِيدِ على رِجالِ القَلَمِ والفِكْرِ، لكَبْتِ مَوْجَةِ الحريةِ والقَضَاء على دُعاتِهَا، وشَدَّدَ مِنْ ضَغْطِ الرَّقَابَةِ على الجَامِعَاتِ والمدارِسِ الثانويةِ ومَنَاهِجِ التعليْمِ، وأعْطَى لمالكي الأرْضِ سُلطَةَ الحَكَمِ بينَ مَنْ يَعملُوْنَ في أملاكِهِمْ منَ الفلاّحينَ، فعادَ الإقْطَاعُ إلى مَظْهَرِهِ الوَحْشِيِّ، وأصبحَ القيصرُ في عُزلَةٍ عنْ شَعْبِهِ المقْهُورِ.

وخَلَفَ الإسْكَنْدَرَ الثّالثَ بعدَ وَفاتِه عَامَ ١٨٩٤

ابنُه **نيقولا الثّاني**، وتابَعَ السَيْرَ على سِياسَةِ أبيْهِ، في التَّنْكِيْلِ بالفَوْضَوِيّينَ ودُعاة الحريةِ. ولم يَلْبَثْ هؤلاء أن أدركُوا عُقْمَ سِلاحِ الاغْتِيالِ لخضُوعِ الفلاّحينَ خُضُوعاً أعمَى للقيصَرِيَّةِ واستبدادِهَا، في حينِ أَنَّ المستنيرينَ المتعلمينَ قِلّةٌ مُتَفَرِّقَةُ الأَهوَاء!

ولكنّ قُوّة جَديدَة تظهَرُ في روسية فتَفْعَلُ ما لَمْ يستَطِعِ الفَوضَوِيُّونَ أن يَفْعَلُوهُ: **تلكَ هي الصِّنَاعَةُ**، وقد أدّى إنشاء المصانِعِ إلى ظـهُورِ **الطبقَةِ الوُسطىَ** التي أصبَحَتْ تتعلَّمُ وتَغْتَنيْ وترَفُضُ أن تُستَعْبَدَ، وأقبلَ العمّالُ منَ المزارِعِ على المصَانِعِ، لِيَعْمَلُوا جماعاتٍ جماعات، وَبَدأَتْ تلكَ الجَماعَاتُ تستَيْقِظُ، وتَشْعُرُ بالإِرْهَاقِ والظّـلْمِ، فينْشَأُ التَمرُّدِ فِي النُّفُوس، وتحتَ تأثِيرِ هذهِ العَوَامِلِ الاقتصاديّةِ الجَديدةِ **ينشَأُ حِزْبٌ ثورِيٌّ هوَ الحِزْبُ**

الاشتراكيُّ الديموقراطِيُّ الّذي يَرى أنَّ النظامَ النيابيَّ لا يَكْفِي للإِصْلاَحِ المَنْشُودِ، **فلا بُدَّ منْ ثَوْرَةٍ سياسيَّةٍ عَارِمَةٍ تَقْلِبُ الوضْعَ القائِمَ كُلَّهُ؛** وقد نَشِطَتْ دَعْوَةُ هذا الحزْبِ في صفوفِ العُمَّالِ، وأعلَنَ أنَّه يَنْبذُ فِكْرَةَ العُنْفِ والاغتِيَالِ، وراحَ ينشُرُ مبادِئهُ الاشْتِراكيةَ في انتظارِ الوقْتِ المناسِبِ لتَفْجيْرِ الثَّوْرَةِ.

والحقُّ أَنَّ العْنفَ لم يلبَثْ أنْ جاء من جهةٍ أخرىٰ، ففي الجامِعَاتِ كانَ الطُّلابُ يُعانُونَ من التَّضْييقِ عَلَيْهِمْ، **وأَصبَحَتِ الجامعَاتُ أهمَّ المراكِزِ السياسيَّةِ في روسية يومَذاكَ**، وحَصَلَ تمرّدٌ كبيرٌ في أوْسَاطِ الطلَبَةِ بجامِعَةِ بطرسبورغ في عامِ ١٨٩٩، وفي عام ١٩٠١ **اغتالَ أحدُ الطلابِ وزيرَ المعارفِ** لأَنَّهُ أمرَ بالقَبْضِ على نَحْوِ مائتَيْ طالبٍ منْ جامِعتي

كييفَ وبطرسبورغ، وقَدْ أُلْحِقُوا بالخِدْمَةِ العَسْكَرِيّةِ عِقَاباً لَهُمْ على اشتغالِهِمْ بالسِّيَاسَةِ، وحَصَلَ تقارُبٌ بينَ الطّلاّبِ والعُمَّالِ لمواجَهَةِ اضطِهَادِ الحكوْمَةِ واستبْدَادِهَا، وهكذا كانتْ روسيةُ في مطلَعِ القرنِ العشرينَ تضْطَرِبُ فِيْهَا النُّفُوْسُ بالثَّوْرَةِ على طُغيانِ القَيْصَرِيّةِ.

وجاءتِ **الحربُ الروسيةُ اليابانيّةُ** عامَ ١٩٠٤ لتفْضَحَ عجْزَ الحكومَةِ والجَيْشِ عنِ الصَّمُودِ، فاشتَدَّ السُخْطُ على القيصَرِيَّةِ وراحَ الاشتراكيُّونَ الديموقراطيونَ يُؤَلِّبُونَ أنصارَهَم، **وظَهَرَتْ بَوَادِرُ الثَّوْرَةِ العاتِيَةِ بِمَصْرَعِ وزيرِ الدّاخِلِيَّةِ**، وتداعَتْ مَجَالِسُ المقَاطَعاتِ إلى مُؤتَمرٍ حَضَرَهُ مِائةُ عُضْوٍ، وأعلَنُوا فيهِ **أَنَّ البِلادَ تَطلبُ الحّرياتِ العامّةَ على القاعِدَةِ الدسْتُورِيّةِ**، كما تُطالِبُ بالإصْلاَحِ،

وبدَعْوَةِ جمعيةٍ وَطَـنيةٍ لوَضْعِ دُستُورٍ يَضْمَنُ تَحقيْقَ مَطَـالِبِ الشَّعْبِ، وَهَبَّتِ المظَـاهَراتُ في كلِّ بلَدٍ لتأييدِ مَطَـالِبِ المُؤتَمرِ وَقَرارَاتِهِ، وكانَ آخِرَ تلكَ المظَـاهَرَاتِ **مظاهرة عُمَّالِيَّةٌ ضخْمَةٌ تزيدُ على مائتَي ألفِ عامِلٍ**، تركُوا مصانِعَهُمْ في بطرسبورغَ، واتَّجَهُوا يومَ الأحدِ في التاسِعِ منْ كانونِ الثّاني ١٩٠٥ إلى قصْرِ القيصَرِ، في مَسيْرةٍ سِلْميَّةٍ، وَمَعَهُم نساؤهُم وأوْلادُهُم، وقد حَمَلُوا الصُلْبانَ والراياتِ، وَعِنْدَمَا بَلَغُوا وسْطَ المدينَةِ بُوغِتُوا بالرَّصَاصِ، يُطـلِقُهُ عَلَيْهِم الجنْدُ، فيَسقُطُ عددٌ كبيرٌ منَ القَتْلى، ويتفرَّقُ البَاقُونَ، وهكذا **دَفَعَ الشَّعْبُ الروسِيُّ في يومِ الأحدِ الدَّامِي مَهْرَ الحُرِّيَّةِ منْ دِمَائِهِ الزكيَّةِ**، وَبَدأتِ القَطِيْعَةُ بينَ الشَّعْبِ والقيصَرِيَّةِ، وانْطـلَقَتِ الثَّورَةُ تَرفَعُ الراياتِ الحُمْرَ، وكثُرَتِ الاغتيالاتُ،

حتى كانَ عمُّ القيصَرِ بينَ مَنِ اغْتِيلُوا في تلكَ الأيّامِ السَوداء، **وعندَما رأى القَيصَرُ إصْرارَ الشَّعْبِ على نيلِ حريتِهِ لَمْ يَجِدْ بُدّاً منَ الإذْعانِ**، وإجابَةِ مطالبِ الشعْبِ الثَّائرِ، فأعْلَنَ في اليومِ السابعِ منْ تشرينَ الأوَّلِ ١٩٠٥ **قبُوْلَ الدُّسْتُورِ وإقَامَةَ الحُكْمِ النِّيَابِيِّ**.

وعندَمَا اجْتَمَعَ المجلِسُ البرلمانيُّ الجدِيْدُ **(الدُّوما)** في أيارَ ١٩٠٦ كانتْ أكثَرِيتُهُ منَ الاشتِرَاكيّينَ الدّيموقراطيينَ الذينَ راحُوا يُطالِبُونَ بتوزيْعٍ عادِلٍ للثَرَواتِ، بعْدَ انتِزَاعِهَا منْ أيدِي كبارِ المالكينَ، ولكنَّ رئيسَ الحكوْمَةِ **(ستوليبين) كانَ للمجْلِسِ بالمرْصَادِ، وقد تَريَّثَ حتّى هَدَأَتِ النُّفُوسُ، ثُمَّ أعْلَنَ بعدَ ٧٢ يَوماً حَلَّ المجْلِسِ، فلم يُحرِّكْ أَحَدٌ سَاكِناً، وبدأَ في روسيةَ عهدٌ**

مُظْلِمٌ حالِك، على يَدِ السَّفَّاحِ ستوليبين، إذْ تَمّ إزْهَاقُ أرواحِ الآلاَفِ دونَ حِسَابٍ، وغَصَّتِ السُّجُونُ بآلاَفِ المُعتَقَلينَ، وأرْسِلَ إلى المَنْفَى مِئاتُ الآلافِ، **واستَمرَّ هذا الليلُ الحالِكُ حتى مَصْرَعِ ستوليبين** برَصَاصَةٍ اغْتَالَتْهُ عامَ ١٩١١ في مدينةِ كييفَ، والشَّعْبُ الروسِيُّ في انتظارِ فجرِ الحرّيَةِ القريبِ.

***

قَدَّمْنَا هذا العَرْضَ السَّرِيْعَ للتَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ لروسية القيصريةِ في عصرِ تولُستُوي، لكَيْ يُنِيْرَ لنا مراحِلَ حياةِ الكاتِبِ المُفكِّرِ العَظِيْمِ خلالَ هذا العَصْرِ الطَّوِيْلِ: **فقدْ وُلِدَ ليونُ تولستويِ في عَهْدِ نيقولا الأوْلِ** وأمضَى طفولَتَهُ ونَشْأَتَهُ وتحصيْلَهُ الجَامِعِيَّ وخِدْمَتَهُ العسكَرِيَّةَ في ظِلِّ حكمِ هذا

القيصَرِ، ثم تَفَتَّقَتْ عَبْقَرِيَّتُهُ وَوَصَلَ إلى أَوْجِ إنتَاجِهِ الرِّوَائيِّ في عهدِ **الإسكَنْدَرِ الثَّاني**، وعندَ تَوَلِّي **الإسكندرِ الثَّالثِ** عَرْشَ القيصَريةِ كانتْ شخصيَّةُ تولستوي بعْدَ دراساتِهِ الدِّينيَّةِ والفِكْريَّةِ قد حَقَّقَتْ تَطَوُّراً ذاتِياً عَمِيْقاً، وأصبحتْ لهُ مِنْ بَعْدُ رسالةٌ كبيرة ظلَّ يُبَشِّرُ بهَا في عَهْدِ الإسكندَرِ الثَّالثِ وعهدِ ابنِهِ **نيقولا الثّاني**، وقَضَى نَحبَه في ظِلِّ حكمِ القَيْصَرِ الأَخيرِ، وهكذا نَجِدُ **تولستويَ يُعَاصِرُ أَرْبَعَةً مِنَ القياصِرَةِ مِنْ أسْرَةِ رومانوف، وَيَمُوْتُ قبلَ سبعِ سَنَواتٍ مِنَ انطلاقِ الثَّورَةِ الاشتراكيَّةِ الكُبْرى، ولكنَّهُ كانَ بحَقٍّ رائِداً وَمُمَهِّداً وأَبَاً لهَا**، وقد آنَ لنا أنْ نُرافِقَهُ فِي مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ الطَوِيْلَةِ وكِفاحِهِ البُطوْليِّ في سَبِيْلِ رِسَالَتِهِ العَظِيْمَةِ.

الباب الثاني

من الطُّفُولةِ إلى الشبابِ

النشأةُ والتكوينُ

١٨٢٨-١٨٥٥ م

— ١ —

تَنْحَدِرُ أسرةُ تولستويَ من أصْوْلٍ ألمانيةٍ، فقدْ هاجرَ جدُّهُ البعيدُ منْ أوْكرانيا في القرنِ الرابعَ عشر إلى مُوسكو، وبَلَغَ أَحَدُ أجدادِهِ أَرْفَعَ المَناصِبِ في عَهْدِ القَيْصَرِ العَظِيْمِ بُطْرُسَ الأكبرِ، فَمُنِحَ الكثيرَ مِنَ الضِّياعِ والأَراضِي، وأُعْطِيَ لَقَبَ (كُونْت) الذي أصبحَ أَحْفَادُهُ يَتوارثُونَهُ جِيْلاً بعدَ جيْلٍ.

أمّا جَدُّهُ الأخِيرُ (إلْيا تولستوي) فقدْ كانَ ماجِناً مُستهْتَراً، بَدَّدَ الثروةَ الكبْيرةَ التيْ وَرِثَها، كَما بَدَّدَ ثَرْوَةَ زَوْجَتِهِ الغَنِيَّةِ أيضاً، منْ جَرَّاءِ تَبْذِيرِهِ وَإسْرَافِهِ، فاضْطُرَّ إلى قُبُولِ وَظيفَةِ حاكِمٍ لمدِيْنَةِ قازانَ، فانْتَقَلَ بأسْرَتِهِ إليْها، حيثُ تمكَّنَ مِنَ

كانَتْ بعضُ صِلاتِ القُربى تربطُ ماري فولكنسكي بشاعِرِ روسيةَ الأكبرِ **بوشكينَ.**

كانَتْ أمُّ تولستوي أمرأة مثقَّفَةً تتحدَّثُ خمْسَ لُغَاتٍ وتُجيدُ العزْفَ على البيانو، وكانَتْ تُجيدُ سَرْدَ الحكاياتِ والقَصَصِ بأسلوْبٍ أخَّاذٍ، وقدْ حَمَلتْ إلى زوجِهَا ثَرْوَة قِوامُهَا ٨٠٠ عبدٍ مع ضَيعَةِ **(ياسنايا بوليانا)** الجميلةِ، التي تَقَعُ في ولايَةِ **(تولا)** على بُعْدِ ١٣٠ ميلاً من مدينةِ **موسكو،** وفِي القَصْرِ الأنيقِ القائِمِ على مُرتَفَعٍ مِنْ الأَرْضِ في تلكَ الضَّيْعَةِ، بِجَنَاحَيْهِ الحَجَرَّيْينِ العَظِيْمَيْنِ وأخشَابِهِ الزَّاهِيَـةِ اللوْنِ، وُلِدَ ليونُ تولستوي في ٢٨ آبَ ١٨٢٨ **فكانَ رابعَ ثلاثَةٍ منْ إخْوَتِهِ هُمْ:** **(نيقولا)،** أخُوْهُ الأَكْبَرُ، و **(سيرجي)** و **(ديمتري)،** وقدْ شَاء القَدَرُ أنْ يَسْلُبَ هؤلاء

الاخْوَةَ الأَرْبَعَةَ الصِّغَارَ وأخْتَهُمْ **(ماري)** أمَّهم البارَّةَ الحَنُوْنَ، فماتَتْ عَنْهُمْ، وليونُ الصغيرُ دُوْنَ الثّانِيةِ بقَلِيْلٍ، وشاء القَدَرُ أنْ يُعوِّضَ الأَطْفَالَ الصِّغارَ عنْ أمِّهم بامْرَأةٍ عَظِيمَةٍ هي مِثَالٌ نادِرٌ فِي التَّضْحِيَةِ والإخْلاَصِ، واسْمُهَا **(تاتيانا برجولسكي)** وكانَتْ وُلِدَتْ يتَيْمَةً فَعُنِيَ بها جَدُّ تولستوي (إليا) وكَفِلَهَا، فنشأَتْ في بَيْتِهِ، وأَحَبَّتْ (نيقولا) والدَ تولستوي حُبّاً صادِقاً نَزِيْهاً، وتَعَمَّدَتْ ألاّ تَتزَوَّجَهُ لِتُتِيْحَ لَهُ الزَّوَاجَ مِنِ امْرَأةٍ غَنِيَّةٍ، فَلَمّا تُوفِّيَتْ أمُّ ليونَ، عادَ نيقولا إلى طَلَبِ يَدِهَا، فاعتَذَرَتْ وآثَرَتْ أنْ يَظَلَّ حُبُّها لَهُ رُوْحَانِياً مُسْتَدِيْماً، وَرَضِيَتْ أنْ تعيْشَ مَعَ أطْفَالِهِ الخَمْسَةِ، تُرَبِّيْهِمْ وتَرْعَاهُمْ بِحَنَانِهَا وَعْطفِهَا **وَسَيَظَلُّ أَثَرُ (العمَّةِ تاتيانا) في نَفْسِ كاتِبِنَا العظِيْمِ خَالِداً**، وَيَظَلُّ شَخْصُهَا حَيّاً فِي قَلْبِهِ، وَصُوْرَتُهَا

ماثِلةً في خاطِرهِ: فَقَدْ كانَتْ عِنايَتُها بالصَّغِير ليونَ خيرَ تعويضٍ لَهُ في طُفُولَتِهِ عنْ أمِّهِ الرَّاحِلَةِ، فأَحبَّهَا منْ أعْمَاقِ قلْبِهِ حُبَّاً يَصْغرُ أمَامَهُ كلُّ حُبٍّ، وَظَلَّ دائمَ الاعْتِرَافِ بِفَضْلِهَا عَلَيْهِ، ومِمَّا سَيَكْتُبُهُ في مُذَكّراتِهِ عَنْهَا: «لَقَدْ كانَ للعمَّةِ تاتيانا أعظمُ الأَثَر في حَيَاتِيْ، فمنذُ الطُّفُولَةِ الباكِرَةِ عَلَّمَتْنِي بَهْجَةَ الحُبِّ الرُّوحِيِّ وجَمَالَهُ، لا بِكَلامِهَا فَحَسْبُ، بَلْ بسُلُوكِهَا العَمَلِيِّ وَمَثَلِهَا الأَعْلَى».

أمّا أَبُوهُ **الكونْتُ نيقولا تولستوي** فَقَدْ كانَ شَديدَ العَطْفِ على أبنَائِهِ، وكانَ ليونُ يشعُرُ بطِيْبَةِ قلْبِ أَبيْهِ، ونَفْسِهِ العامِرَةِ بالرأفَةِ والرِّفْقِ، وكانَتْ هَيْبَةُ أبيْهِ أكْبَرَ ما يَسْتَرعِي انتِباهَ الطِّفْلِ، وَقَدْ عَلَّلَ يومَاً سِرَّ تلكَ الهَيْبَةِ بقَوْلِهِ: «ما أَهانَ والدِي نَفْسَهُ من أَجْلِ كبِيْرٍ، وَمَا طأطَأَ رأسَهُ لِعَظِيْمٍ، وَقَدْ ظَلَّ

مُحْتَفِظاً بِرُوْحِهِ المَرِحَةِ وَثِقَتِهِ بنفسِهِ وكرامتِهِ، ممّا مَلأَ نَفْسي محبةً له وإعْجاباً بِهِ»، **وسَيَرِثُ ليونُ عن أبيْهِ جُمْلَةَ صِفَاتِهِ**، فَيَنْشَأُ عَطُوفاً رَؤُوْفاً طيِّبَ القَلْبِ إلى شِدَّةِ اعتِدادٍ بالنَفْسِ، تدفَعُهُ إلى المُبَاهاةِ والزُّهُوِّ وَالتَّكَبُّرِ على غَيْرِهِ أحْيَاناً، وَسَنَشْهَدُ فيما بَعْدُ جِهَادَهُ العَظِيْمَ لِنَفْسِهِ، للتَغَلُّبِ على تِلكَ النَزَعَاتِ المَوْرُوثَةِ في طَبْعِهِ وسُلُوْكِهِ.

— ٢ —

عندَمَا بَلَغَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ الخَامِسَةَ من عُمُرِهِ انضَمَّ إلى إخْوَتِهِ لِيَبْدَأَ الدِّراسَةَ، وكانَ الأَبُ قد **أحْضَرَ إلى القَصْرِ مُرَبِّياً ألمانياً** لتَعلِيْمِهِمْ اللغَةَ الأَجنَبِيَّةَ بالحِوارِ والمُمَارَسَةِ، لا بالقِراءةِ في الكتُبِ وَحدَهَا، وكانَ المربِّي الألمانيُّ رَجُلاً مستقيمُ الخُلُقِ كَرِيمَ الطَبْعِ، عَطُوْفاً على مَنْ يُرَبِّيْهِمْ، شَدِيْداً عَلَيْهِم أحْيَاناً في غَيْرِ عُنْفٍ، مُخْلِصاً في عَمَلِهِ، وَلِهذا كانَ أثَرُهُ في نَفْسِ ليونَ كَبيْراً، إذْ وَجَدَ فيْهِ الصبيُّ قُدْوَة حسَنَةً بأَخْلاَقِهِ وَصِفَاتِهِ، واسْتَفَادَ مِنْ دُرُوْسِهِ أبْلَغَ الفَائِدَةِ.

وكانَتْ حُجْرَةُ الدِّراسَةِ في القَصْرِ تَجْمَعُ

أبناء الكونتِ، وكانَ ليونُ شديدَ الحُبِّ لإِخْوَتِهِ جَمِيْعاً، وكانَ يُحِبُّ اللَّعِبَ مَعَهُم، عندَمَا تَنْتَهِيْ ساعاتُ الدِّراسَةِ، ويأذَنُ لَهُم مُربيهِمُ الأَلمانيُّ بِمُغَادَرَةِ الحجْرَةِ، لِيَنَالُوا حظَّهُمْ مِنَ اللَّعِبِ والرِّيَاضَةِ!

كانَ أَخُوْهُ الأكبَرُ نيقولا واسعَ الخَيَالِ، يَبْتَكِرُ أَلْوَاناً مِنَ الأَلْعَابِ، فَيَجِدُ فِيها الصِّغَارُ ما يُبْهِجُ نُفُوْسَهُم وَيَمْلَؤهَا مَرَحاً، وكانَ يَروِيْ لإِخْوَتِهِ الحكاياتِ والقِصَصَ الجَمِيْلَةَ المختَرَعَةَ، ويَحْشُوْهَا دُعَابَاتٍ وفُكَاهَاتٍ.

وَأَمّا **أَخُوْهُ الثَّانيْ سيرجي** فكانَتْ لَهُ منذُ طُفُوْلَتِهِ هَيْئَةٌ ارستقراطيةٌ واضحةٌ، وكان شديدَ الإِعْجَابِ بِنَفْسِهِ وَهِنْدَامِهِ، فكانَ ليونُ يَتَمَنَّى أَنْ يكونَ لَهُ مثلُ وَجَاهَتِهِ وَشَكْلِهِ، وكانَ يُحاوِلُ أَنْ

يُقَلِّدَهُ فيما يَعْمَلُ، فَلاَ يَفُوزُ بما يُرِيْدُ، لأَنَّهُ لَم يَكُنْ لَهُ ما لأَخِيْهِ منْ جَمَالِ الطَّلْعَةِ وحُسْنِ السِّمَةِ، وكانَ هذا كلُّهُ مصدَرَ آلامٍ للصَّبيِّ فِي طُفُولَتِهِ، ثُمَّ في مَرْحَلةِ شَبَابِهِ، وَسَيَظَلُّ الكاتِبُ العَبْقَرِيُّ دائِمَ الإِحْسَاسِ بِحِرْمَانِهِ من الوسَامَةِ وَجَمَالِ الطَّلْعَةِ، كثيرَ الانطِوَاء على نَفْسِهِ منْ أجْلِ ذلكَ، في مُستَقْبَلِ أَيَّامِهِ.

وكانَ **أَخُوْهُ ديمتري** أقرَبَ الثَّلاثَةِ إليْهِ سِنّاً، وكانَ يأسرهُ بهُدوئِهِ وابتِسَامَتِهِ الحُلْوَةِ وَعَاطِفَتِهِ الرَّقِيْقَةِ الهَانِيَةِ، ولكنَّ ليونَ لا يذكرُ عَنْهُ شَيْئاً كثيراً في كِتَابَاتِهِ.

وقَد وَصَفَتْ مارِي أَخَاها الأَصْغَرَ ليونَ بأَنَّهُ كانَ مَرِحاً شديدَ المَرحِ، كثيرَ الابتِسَامِ والأَدَبِ، رقيقَ الإِحْسَاسِ، ولمْ يكنْ مَرّة فَظّاً مَعَ

أَحَدٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وعنْدمَا كانَ يغضَبُ لأمرٍ مَا كانَتْ دُمُوْعُهُ تَنْهَلُّ مِنْ عَيْنَيْهِ، وإذَا ضَايقَهُ أَحَدُ إخْوَتِهِ كانَ يعدُوْ بَعِيْداً، ويَسْتَسْلِمُ إلى الصّراخِ طَوِيْلاً.

وكانَتْ **أجْمَلَ مَسَرَّاتِ الصَّبِيِّ في طُفُولَتِهِ** بَهْجَةُ نَفْسِهِ في أَعْيَادِ الميلاَدِ، وما تَحْشُدُ الأسْرَةُ لَها مِنْ مظاهِرِ الفَرَحِ والطَّعَامِ والشَّرابِ، والثِّيَابِ الجَدِيْدَةِ، كَما كانَتْ مشارَكَةُ الصبِيِّ مَعَ إخْوَتِهِ في نزهَاتِ الصَّيْدِ معَ أبيهِمْ، على ظُهُورِ الخَيْلِ أوْ فِي العَرَبَاتِ الجَمِيْلَةِ، مِنْ كُبْرَى مَبَاهِجِ طُفُوْلَتِهِ وَمَسَّراتِهَا، وَعَلى هَذا كانَتْ طُفُوْلَةُ كاتِبِنَا العَظِيْمِ تَفِيْضُ بالسَّعَادَةِ، وَقَدْ وصفَ هُوَ نَفْسُهُ حَلاوَتَها فِي أوَّلِ كِتَابٍ لَهُ وَهُو **«عهدُ الطُّفُولَةِ»** فَقَالَ:

«ما أسْعَدَ هاتيكَ الأيامَ الحُلْوَة، أيَّامَ الطُّفُوْلَةِ

التي لا تنمحي ذكراها، وكيف ينسى امرؤ أن يُحِبَّ ذكرياتِها وأنْ ينْعَم بها! إنّ هذهِ الذكريات لتنعِشُ رُوحي وتسمُوْ بها، وهي المنبع لأعظم فَيْضٍ مِن السُّرورِ يَغْمُرُنيْ».

وعندما أتمّ ليونُ السنةَ الثَّانية مِنْ عُمْرهِ عامَ ١٨٣٧ **انتقلَتِ الأسْرَةُ إلى موسكو، لِيُتابعَ الأوْلادُ دِراسَتَهُم فِيْهَا**، ويَبْدو أنّ صاحِبَنا لم يكُنْ مُرتاحاً إلى تَرْكِ مَرابعِ طُفُوْلَتِهِ السّعيْدةِ فِيْ **(ياسنايا بوليانا)** فلَمْ يَنْشَطْ إلى دُرُوْسِ أستاذِهِ ومُربّيْهِ الفرنْسي الجَديْدِ فِي موسكو، واضْطرّ الأستاذُ إلى حبْسِ تلميْذِهِ المُهْمِلِ في حُجْرَةٍ، وإلى تهْديدِهِ بالضرْبِ بعَصاهُ، وكانَ أثرُ هذا العِقَابِ في نفْسيّةِ الصّبيّ قَاسِياً، فأحَسّ بِمَزيْجٍ مِنَ الغَضَبِ والاحتِقارِ والاشْمِئزَازِ، نَحْوَ مُرَبّيْهِ الجَديْدِ، وَنَحْوَ القَسْوَةِ

والعُنْفِ والعِقَابِ إجْمَالاً. وكانَ المُرَبِّي الفَرنْسيُّ مَعَ ذلكَ مُوقِناً مِنْ مَوْهِبَةِ الصَّبيِّ وَذَكائِهِ وكانَ يُسمِّيْهِ «**مُوليير الصغيرَ**» لِمَا كانَ ليونُ يمتَازُ بِهِ مِنْ حِسٍّ مُرْهَفٍ وَمُلاحَظَةٍ دَقِيْقَةٍ وَفِطْنَةٍ وإدْرَاكٍ.

كانَ ليونُ منذُ طُفُوْلَتِهِ مَشبُوبَ العَاطِفَةِ، كَثيرَ الانْفِعَالِ، يُصغِيْ بِكُلِّ جَوارِحِهِ إلى المُوْسِيْقى وإلى القصَصِ والحكايَاتِ، ويُحِسُّ بالنَّشْوَةِ تَغْمُرُهُ وَتجعَلُهُ يَسْتَرْسِلُ فِي أحْلامِهِ، وكانَتْ عواطِفُ الحُبِّ والغَيْرَةِ تَمْلأُ قَلْبَهُ الصَّغِيْرَ، وتُسِيْلُ دُمُوعَ عَيْنَيْهِ، **وَكَمْ مِنْ طِفْلَةٍ أَحَبَّ** وَشَعَرَ وهُوَ يرافِقُها بدُمُوْعِ الفَرَحِ تَنْهَلُّ عَلى خَدَّيْهِ مِنْ فَرْطِ نَشْوَتِهِ، **وَقَدْ بَلغَتْ غَيْرَتُه يَوْماً على إحْدَاهُنَّ وَهِيَ تَتَحدَّثُ إلى غُلامٍ غيرِهِ، إلى أنْ دَفَعَ بِهَا مِنَ الشُّرْفَةِ فَسقَطَتْ وأصِيْبَتْ بِعَرَجٍ لمُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ، وَشاء القَدَرُ أنْ**

تصيرَ هذهِ **الطّفلَةُ أُمَّ زَوْجَتِهِ**، فيتَزَوَّجَ بَعْدَ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ إحْدَى بَنَاتِهَا.

ولمْ يُسعَدِ الصّبيُّ بِمُقَامِهِ فِي مُوسكو، فَفِي صَيْفِ العامِ نَفْسِهِ (١٨٣٧) **يَمُوْتُ أَبُوْهُ، وَتَتْبَعُهُ أمُّهُ (جَدَّةُ ليونَ)** حُزْناً على وَلَدِهَا بَعْدَ أشْهرٍ، **وَيَشْعُرُ الصَبِيُّ بِيَدِ المَوتِ تَعْصِرُ قَلْبَهُ الصَّغِيْرَ**، وتَدْفَعُ بِهِ إلى التّفكِيْرِ فِيْ المَوْتِ، وَهُوَ بَعْدُ فِي تِلْكَ السِّنِّ الغَضَّةِ، وَلَمَّا يَبْلُغِ التَّاسِعَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَقَدْ أَصْبَحَ مُنْذُ اليَوْمِ **يَتِيْمَ الأَبَوَيْنِ!**

وَصَارَتِ الوِصَايَةُ عَلى الأَوْلادِ إلى عَمَّتِهِمْ ألِينَ (الكونتس أوستن سيكن) وَكَانَتْ امْرأة تَقِيَّةً صَالِحَةً تَعْطِفُ عَلى الفُقَرَاء وَتَرْأَفُ بِخَدَمِهَا، وَقَدْ خَلَّفَتْ فِي نَفْسِ ليونَ شُعُوراً عَمِيْقاً بالإجْلالِ والإكْبَارِ، وَهِي التي عَلَّمَتْهُ كيفَ تَسمُو النَّفْسُ

الفَاضِلَةُ وتطِيْبُ بالِدِّينِ، ولكنَّ العمَّةَ ألينَ تَقْضِي نَحبَهَا في خَرِيفِ عامِ ١٨٤١، **فَتَنْتَقِلُ الوِصَايَةُ على الأَوْلَادِ إلى عَمّةِ أخْرَى لَهُمْ هيَ السَّيِّدَةُ يُوشْكوفْ،** زوجةُ أَحَدِ المُلاَّكِ مِنْ ذَوِي الثّرَاء **في قازان،** ويَنْتَقِلُ الأَولادُ إلى هذِهِ المدينَةِ لِيَكُونُوا تحْتَ رِعايَةِ عمَّتِهِمْ (يُوشْكافا) وقَدْ أصبَحَ ليونُ في نَحْوِ الثّالِثَةَ عشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ.

- ٣ -

كانَتِ العَمَّةُ (يوشكافا) امرأة طيِّبَةَ القَلْب، على حَظٍّ مُتَواضِعٍ مِنَ الثَّقافَةِ، وكانَ زوجُها الثَّريُّ يقضِي أكْثَرَ وَقْتِهِ فِي استِمَاعِ الموسيقى ولَعِبِ الوَرَقِ، وكانَ يَجْمَعُ أصحابَهُ في بَيْتِهِ لذلكَ، فتأَثَّرَ الصِّبْيَةُ بالجَوِّ اللاهِي الجَدِيْدِ، وكانَ لذلكَ سُوْءُ أَثَرِهِ فِي دُرُوْسِهِمْ.

وكانَ أكْثَرَ ما يَشْغَلُ ليونَ في قازانَ انصرافُهُ إلى المُطالَعَةِ، فقَدْ أصْبَحَ **يلتَهِمُ الكُتُبَ التِهَاماً**، وقد أغْرِمَ بِقَصَصِ **ألفِ ليلَةٍ** وليلَةٍ، **وشِعْر بُوْشكينُ**، وفي قراءتِهِ **للإنْجِيْلِ** اسْتَهْوَتْهُ قِصَّةُ يُوْسُفَ، ولمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الخامِسَةَ عَشْرة مِنْ عُمُرِهِ

حتّى رَاحَ يقْرأ **مُؤلّفاتِ رُوسُّو،** ثُمَّ أصبَحَ مَسْحُوراً بِهَا، واتَّجَهَ بعدَ ذلكَ إلى **قِراءةِ الفَلْسَفَةِ،** وقَد بلَغ السادسَةَ عَشْرَةَ، وقَدْ شَغلَتْهُ فِكْرَةُ الوُجُودِ والرُّوْحِ وَمُهمَّةِ الإنسَانِ في هذا الكوْنِ، ومَصيْرِهِ والحياةِ الأُخْرى إلخ... وَوَجدَ الفَتى نَفْسَهُ منْسَاقاً إلى التَّشاؤمِ، فَيُهْمِلُ دُرُوْسَهُ، ويُطلِقُ العنَانَ لشَهْوَةِ جَسَدِهِ العارِمَةِ، ويَنْغَمِرُ في البَطالَةِ واللهْوِ، وسَيَظلُّ ليونُ منذُ يفاعَتِهِ قويَّ البَدَنِ، مُتدفِّقَ الحَيَوِيَّةِ، ظامِيءَ الرَّغْبَةِ إلى المَرْأةِ، على الرَّغْمِ مِنْ شُعوْرِهِ الدَّائم بافتِقَارِهِ إلى الوسَامَةِ وجَمَالِ الطَّلْعَةِ، وَقَدْ **ساقَهُ الشَّيْطَانُ يَوْماً في طريْقِ الإِثْمِ** فأَوْقَعَ في حَبائلِهِ فَتاةً عذْرَاءَ مِنْ خَدَمِ عَمَّتِهِ، وَبلَغَ ذلكَ عَمّتَهُ فَطرَدَتِ الفَتاةَ مِنْ بَيْتِهَا، فتَلقَّاهَا الشَّارِعُ وَأَسْلَمَها إلى الرذِيْلَةِ، ثُمَّ لاقَتْ حَتْفَهَا في صُوْرَةٍ مُنكَرَةٍ

حَزِيْنَةٍ، وكانَ لمأسَاتِهَا البَشِعَةِ أثَرٌ كبيْرٌ فيْ نَفْسِ الفَتَى المُذْنِبِ الآثِمِ، فظلَّ النَّدَمُ يُخَالِجُهُ على ما جنَتْ يَداهُ، غيرَ أنَّ نَدَمَهُ لمْ يَمْنَعْهُ في شَبَابِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ الإِثْمِ والاستِسْلاَمِ إلى الرَّذِيْلَةِ، في وقْتٍ كانَ الصِّراعُ فيهِ بين نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ لا يَنْقَطِعُ.

وعندَمَا بَلَغَ ليونُ السادِسَةَ عشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ **التَحقَ بجَامِعَةِ قازانَ، وانْتَسَبَ إلى قِسم اللغَاتِ الشَّرقِيَّةِ**، ولكنَّهُ كانَ في ساعَاتِ الدَّرْسِ ينصرِفُ عمّا يقولُهُ الأَساتِذَةُ، ويُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ سَاخِراً من كلِّ ما يَرىَ، و يَسْتَسْلِمُ إلى ما يَطُوْفُ برأسِهِ مِنْ أحَلامِ الشَّبَاب وأَوْهَامِهِ، وكانَ أكبرَ ما يَهتَمُّ بهِ فَتَانَا الجَامِعِيُّ أنْ يلبِسَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وأغْلاَهَا، وأَنْ يَلْعَبَ المَيْسِرَ ويَشْرَبَ الخَمْرَةَ معَ جَمَاعَاتٍ مِنْ لداتِهِ، وأنْ يُدَخِّنَ الطِّبَاقَ في غُليونٍ جميلٍ غَالي

الثَّمَنِ، وأنْ يَتَطيَّبَ بأَغْلى العِطْرِ، وَيَدْهُنَ شَعْرَهُ وَيُلَمِّعَهُ، وأنْ يتكلَّمَ الفَرَنْسِيَّةَ في أَنَاقَةٍ مُتَكلِّفَةٍ! وَقَدْ كانَ حَرِيْصاً على أنْ يُخالِطَ الأَوْسَاطَ الأرستقراطيَّةَ في المدينَةِ وَيحضُرَ الحَفَلاتِ العامَّةَ لِيَجذِبَ الأَنْظَارَ إليْهِ بِمَظْهَرِهِ الأَنيْقِ، وَقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ، وَمُشارَكَتِهِ في أَحَادِيْثِ النَّاسِ، وَمُعَارَضَةِ آرَاء المُتَحدِّثيْنَ مِنْهُم، للتَّدْلِيْلِ عَى أَصَالتِهِ وَعُمْقِ تَفْكِيْرِهِ! وكانَتْ أحْلامُ شَبَابِهِ تَدفَعُهُ إلى مُلاحَقَةِ الفَتَيَاتِ، وليسَ عَجْيباً أن يَغْدُوَ الفَتَى، بَعْدَ إسْرَافِهِ في عَبَثِهِ ولَهْوِهِ، طَالِباً فاشِلاً مُخْفِقاً في دِرَاسَتِهِ!

وَتَرَكَ ليونُ كلِّيَّةَ اللغاتِ الشَرْقيَّةِ في عَامِهِ الجَامِعِيِّ الثَّاني **والتَحقَ بكُلِّيَّةِ القَانُونِ**، وكانَ مَيَّالاً إلى القَانُونِ المقارَنِ، والقانونِ الجنائيِّ ودِراسَةِ عقوبَةِ الإعْدَامِ، فأقبلَ على قراءتِهَا، وأهْمَلَ العُلومَ

الأُخْرَى، وكانَ الفَتى يَجدُ المُتْعَةَ في دِراسَةِ ما يُحبُّ، فلا يَقِفُ عِنْدَ حُدوْدِ المَناهِجِ المُقَرَّرَةِ، ويُهْمِلُ ما لا يُحِبُّ ويَنْصَرِفُ عَنْهُ، فِي عِنَادٍ واستِخْفَافٍ بالامْتِحَانَاتِ الجامِعِيَّةِ وَنَتَائِجِهَا.

وَفي آذارَ مِنْ عامِ ١٨٤٧ يُصيْبُ جسمَهُ المَرَضُ، بَعْدَ أنْ أَنْهَكَهُ بالإِسْرافِ في مَلَذَّاتِهِ، فَيَدخُلُ المستَشْفَى، وهناكَ **يبدأ بكِتَابَةِ مذكراتِهِ اليَوْمِيَّةِ** التي سَتَغْدُو أهَمَّ مصادِرِ تارِيخِ حَياتِهِ.

وفي أيارَ مِنْ ذلكَ العامِ **يَتْرُكُ ليونُ الجامِعَةَ دونَ أنْ يَحْصَلَ على شهادَةٍ مَا، وَقدْ تَوَقَّفَ عِنْدَ هذا الحدِّ مِنَ التَعْلِيْمِ الجَامِعِيِّ.**

كانَتْ تَرِكَةُ أَبيهِ قَدْ قُسِّمَتْ قبلَ عَامٍ بَيْنَهُ وبينَ إِخْوَتِهِ، فكانَ نصيبُهُ مِنْها **ضَيْعَةَ (ياسنايا بوليانا)**

مَعَ أَرْبَعِ **ضِيَاعٍ أُخْرَى**، تبلغُ مِساحَتُهَا ٤٠٥ آلافٍ مِنَ الأفدِنَةِ، مَعَ ٣٥٠ مِنَ الفَلاَّحِيْنَ الذُّكُورِ وَمِنْ ورائِهِمْ أَسَرُهُمْ، وَقَدْ عَزَمَ صاحِبُنَا على العَوْدَةِ إلى أَمْلاكِهِ، لِيَتَوَلَّى إدارَتَهَا بِنَفْسِهِ، ويَنْهَضَ بإِصْلاَحِ حالِ فلاَّحِيْهِ فِيْهَا، لِيُنْقِذَهُمْ مِمَّا هُمْ فيْهِ مِنْ جَهْلٍ وَبُؤْسٍ.

وَيَعُوْدُ الفَتَى وَقَدْ أَشْرَفَ على العِشْرِينَ إلى ضَيْعَتِهِ لِيَبْدَأَ **خطَّتَهُ في الإِصْلاَحِ**، وَيَنْصَرِفَ في عَزِيْمَةٍ إلى بِنَاء أَكْوَاخٍ جَدِيْدَةٍ لِسُكْنَى فلاَّحِيْهِ، وَيُنْشِيء لأَبْنَائِهِمْ المَدارِسَ، وكَانَتِ العمَّةُ تاتيانا تَنْظُرُ في دَهْشَةٍ إلى أَعْمَالِهِ، وَتَحْسَبُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ جَدِيْدَةٌ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّبَابِ لا يَلْبَثُ أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهَا. والحقُّ أَنَّ الفَلاَّحِيْنَ أَنْفُسَهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ إِصْلاَحَاتِهِ، وكانَ الفَتَى المُصْلِحُ يَتَأَلَّمُ لِمَا يَرَى فِي

وُجُوْهِهِمْ مِنْ عَلامَاتِ الشَّكِّ والعِنَادِ والإِنْكَارِ، وَهُمْ يَصِفُونَ الأَكْواخَ الجَدِيْدَةَ بأَنَّهَا سُجُون، وَيَتبَرَّمُوْنَ مِنْ مَدَارِسِهِ لأَنَّها تَشْغَلُ أَبْنَاءهُمْ وَتَحْرِمُهُمْ مِنْ مُساعَدَتِهِم وَعَوْنِهِمْ في أَعْمَالِ الزِّرَاعَةِ، **وَيُحِسُّونُ بالخَيْبَةِ والمَرَارَةِ لإِخْفَاقِ مَشْرُوعِهِ الإِصْلاَحِيِّ**، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ وَيَرْتَدُّ إلى حَيَاةِ اللهْوِ وَالعَبَثِ والمُجُوْنِ وَالمَيْسِرِ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يُغَادِرَ ضَيْعَتَهُ إلى مُوسكو أواخِرَ عامِ ١٨٤٨، حيثُ يَقْضِي عِدَّةَ أَشْهُرٍ مُطْلَقَ العنَانِ مُسْتَرْسِلاً وراء شَهَوَاتِهِ، ثُمَّ انتَقَلَ إلى بطرسبورغ، وَقَدْ عَزَمَ على مُعاوَدَةِ دِراسَةِ الحُقُوقِ في جَامِعَتِهَا، وَكَتَبَ إلى أَخِيْهِ فِي شباطَ ١٨٤٩ بِمَا جَدَّ مِنْ عَزْمِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ في شَهْرِ أيارَ كَتَبَ إلى أَخِيْهِ ثَانِيَةً، يَصِفُ لَهُ سُوْء حَالِهِ، وَقَدْ

أَنْفَقَ كُلَّ ما مَعَهُ فِي اللهْوِ واللَّعِبِ، وتَوَرَّطَ في دُيُوْنٍ كَثِيْرَةٍ.

ولَمْ يَجِدِ الفَتَى اللاهِيْ بُدّاً مِنْ العَوْدَةِ إلى ضَيْعَتِهِ، نادِماً على إسْرَافِهِ في العَبَثِ وَالمُجُوْنِ، وَعَازِماً على التِمَاسِ الهُدُوْء والرَّاحَةِ والتَّفَرُّغِ لِشُؤُوْنِ ضِيَاعِهِ وَأَمْلاَكِهِ!

ولكنَّ الفَتَى لنْ يَصبِرَ على المُقَامِ في ضَيْعَتِهِ الهَادِئَةِ، وَسَيظَلُّ طَوالَ ا لسَنَوَاتِ الثّلاثِ يُوَالِي رِحْلاتِهِ إلى مُوسكو وبطرسبورغَ، يَحمِلُ في كُلِّ رِحْلَةٍ مَعَهُ مَا يَتَجمَّعُ لَدَيهِ مِنْ مَالٍ، لِيُنْفِقَهُ عَلى لَهْوِهِ وَعَبَثِهِ، حتّى إذا أَفْلَسَ واسْتَدَانَ ارتَدَّ إلى الضَّيْعَةِ مِنْ جَدِيْدٍ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ **أَكْبَرَ رذَائِلِهِ آفَتَانِ هُمَا: لَعِبُ المَيْسِرِ وشِدَّةُ الغُرُوْرِ!**

إلاّ أَنَّ الفَتَى المُنْغَمِسَ فِي المُجُوْنِ واللّهْوِ كانَ

لا يَفْتَأ يُوالي قِراءةَ القِصَصِ، **وَيلْتَهِمُ مُؤلّفاتِ ديكنز وجوجول** وغَيْرِهِمَا، وَيُمَنِّيْ نَفْسَهُ بأنْ يَكْتُبَ قَصصاً مُمَاثِلَةً، وَكانَتِ العَمَّةُ تاتانيا تُشَجّعُهُ وتَقُولُ لَهُ: «إنِّيْ لأَعْجَبُ يا عَزِيْزِي ليونَ كيْفَ لا تَكْتُبُ رِوَايَةً ولكَ مِثْلُ مَا لَكَ مِنْ خَيَالٍ!» وَعِنْدَما انْتَهى مِنْ قِراءةِ **رائِعَةِ ديكنزَ (دافيدً كوبرفيلد)** التي يَصِفُ فِيْهَا مَشَاهِدَ مِنْ طُفُوْلَتِهِ، خَطَرَ لِلفَتَى أنْ يَكْتُبَ أيَّامَ طُفُوْلَتِهِ، فانكَبَّ عَلى الكتَابَةِ حتَّى أَتَمَّ بَاكُورَةَ آثَارِهِ الخَالِدَةِ **(عَهْدُ الطُّفُوْلَةِ)**، وَلكنَّ ميْلَ الفَتى إلى اللّهْوِ والمَيْسِرِ والنِّسَاء والخَمْرَةِ كان يَدْعُوْهُ دَائِماً إلى مُعَاوَدَةِ حَيَاتِهِ المَاجِنَةِ، حَتَّى ضَاقَ ذَرْعاً بِسُوْءِ حالَتِهِ، **وَكَانَ أَخُوْهُ الكَبَيْرُ نيقولا ضَابِطاً في الجَيْشِ الرُّوْسِيِّ في القُوقازِ**، وَحَضَرَ فِي إجَازَةِ عيدِ المِيْلادِ عامَ ١٨٥١ إلى ياسنايا بوليانا، فَهَالَهُ مَا

رَأى مِنْ سُوْءِ حَالِ أَخِيْهِ وَضِيقِهِ، **فَدَعَاهُ إلى الرَّحِيْلِ مَعَهُ إلى القُوقَازِ،** لِيَحْيَا هُنَاكَ حَياة جَدِيْدَة، يَتَخَلَّصُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ مَا يُعَانِيْهِ مِنْ ضَيْقٍ، واسْتَجَابَ الفَتَى لِدَعْوَةِ أَخِيْهِ، لِيَبْدأ صَفْحَةً جَدِيْدَة مِنْ حَيَاتِهِ.

— ٤ —

وَصَلَ ليونُ تولستوي بصُحْبَةِ أَخِيْهِ الضابطِ نيقولا إلى **القوقازِ**، ونزَلا في مَدْينَةِ **(ستاري يورتَ)**، وَقَدْ أثَارَ منظـرُ تلكَ الجِبالِ الشَّامِخَةِ إعْجابَ الشّابِّ فَراحَ يَصِفُ لِعمَّتِهِ تاتانيا في رَسَائِلِهِ رَوْعَـةَ ما يَرَى وَصْفاً عَامِراً بالنَّشْوَةِ والحَمَاسَةِ، وَقَدْ تملَّكَهُ الفَرَحُ والنَّشَاطُ لحَيَاتِهِ الجَدِيْدَةِ عِنْدَ سُفُوْحِ تِلكَ الجبَالِ الشَّاهِقَةِ، وتَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ تَحسُّناً مَلْحُوْظاً، فَقَامَ بعِدَّةِ رِحلاَت للصَّيْدِ، وازْدَادَ إعْجاباً بِمَوْقِعِ تِلك البلادِ وَمَنَاظِرِهَا الفاتِنَةِ، كَمَا أعْجِبَ بأَهْلِهَا وَأَخْلاَقِهِمْ وعاداتِهِمْ.

ولكنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ بَعْدَ حِيْنٍ **يُعاوِدُ لَعِبَ**

الْمَيْسِرِ، وَيَخْسَرُ في ليلَةٍ واحدةٍ مئاتِ الروبلاتِ، فازْدَادَ كَدَرُهُ، وَقَدْ أيْقَنَ أَنَّ الهِجْرَةَ إلى القوقازِ لم تُخَلِّصْهُ مِنْ أهْوَاء نَفْسِهِ وَمُيُوْلِهَا السَّيِّئةِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَخُوْهُ **أنْ يَتَطَوَّعَ في جَيْشِ القوقازِ**، لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ، فَقَبِلَ **وَأرْسِلَ إلى مَدِينَةِ (تفليسَ)** حَيْثُ أدَّى امتِحَاناً أَهَّلَهُ للالتِحَاقِ مُتَطَوِّعاً بالجَيْشِ، وَأُلْحِقَ بِفرْقَةِ المَدْفَعِيَّةِ الرَّابعَةِ في (ستاري يورتَ) في شباطَ ١٨٥٢، وَقَدْ تَمكَّنَ بِبَسالَتِهِ مِن لَفْتِ الأَنْظَارِ إلَيْهِ، ولكنَّ إقْبالَ الضُّبّاطِ مِنْ زُمَلاَئِهِ عَلى المَيْسِرِ أغْرَاهُ باللَّعِبِ، وَتَوَالَتْ خَسَائِرُهُ التي كانَ يكتُبُ إلى عَمَّتِهِ بأَخْبَارِهَا، وَكانَ معَ ذَلك يُواليْ الكتَابَةَ، وفي عَدَدِ تشرينَ الثَّانِيْ مِنْ مَجَلَّةِ (المعاصر) الشَّهيْرَةِ، مِنْ عامِ ١٨٥٢ **نُشِرَتْ قصَّتُهُ (عهدُ الطُّفُوْلَةِ) وَحَظِيَتْ بِثَنَاء النُّقَّادِ وَأَهْلِ**

الفَنِّ عَلَيْهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ تورجنيف وديستويفسكي، وَتنبأوا لِكَاتِبِهَا (ل. ت) بمستَقْبَلٍ مجيْدٍ، وَطَابَتْ نَفْسُ الشَّابِّ بهَذا النَّجاحِ، وَقَدْ كانَ «عهدُ الطُّفولَةِ» عَمَلاً فنِّياً مَزَجَ فيهِ الكاتِبُ الناشِىء بيْنَ الحقِيْقَةِ والخَيَالِ، فَفِيْهِ أشياءُ مِنْ سِيْرَةِ طُفُوْلَتِهِ مَمْزُوْجَةٌ بالخَيَالِ، بِبَراعَةٍ وَأَصَالَةٍ وَصِدْقٍ فَنِّيٍّ، وكانَ نَجاحُ تولستوي العظيمُ فِي عَمَلِهِ الأَوَّلِ هذا حَافِزاً لَـهُ إلى كتابَةِ ذِكرَيَاتِ صباهُ فِي «عَهْدِ اليَفَاعَةِ» فَأَكَبَّ على العَمَلِ بِنَشَاطٍ وَهِمَّةٍ وَأَمَلٍ فِي تَحقِيْقِ مَجْدٍ أَدَبِيٍّ كبيرٍ.

وبَدأَ الشَّابُّ يَسْأَمُ حياةَ الجِنْدِيَّةِ، ولَوْلا أنَّ القُوقَازَ بمَنَاظِرِهَا وَأَهْلِهَا وَأَحْدَاثِ الحَيَاةِ فيْهَا كانَتْ تُزَوِّدُهُ بِمَادَّةٍ طَرِيْفَةٍ لِفَنِّهِ القَصَصِيِّ لَمَا أَطَاقَ الصَّبْرَ على العَيْشِ هُنَاكَ، وَلَوْلاَ أَنَّهُ كانَ يقضِيْ أَكْثَرَ

أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ فِيْ قِرَاءةِ الكُتُبِ لَكَانَتْ شَكْوَاهُ مِنَ الخُمُوْلِ والكَسَلِ تُنَغِّصُ عَلَيْهِ أَيَّامَهُ، وَقَدْ كَتَبَ فِي مُذَكّراتِهِ فِي شَهْرِ آذارَ ١٨٥٣: «إنَّ الخِدْمَةَ فِي القوقازِ لمْ تَجُرَّ عَليَّ إلاّ المَصَاعِبَ والكَسَلَ ومَعْرِفَةَ غَيْرِ الأَخْيارِ!»

وَكَثُرتْ تَأَمُّلاَتُ الشَّابِّ وَهُوَ فِي القوقازِ فِي الدّينِ والإِلهِ والإِيمانِ بِوُجُوْدِ اللهِ، والجِسْمِ والرُّوْحِ، وَفِيْ مُذكّراتِهِ لِتِلْكَ الأَيَّامِ أَصْدَاءُ هذهِ التأَمُّلاَتِ، وَهِي تُصَوِّرُ حَيْرَةَ الشَّابِّ بَيْنَ الشّكِّ والإِيْمَانِ، لتكْوِيْنِ صُوْرَةٍ فيْ نَفْسِهِ عَنِ اللهِ، وَخُلُوْدِ الرُّوْحِ، ويَوْمِ البَعْثِ والحِسَابِ لجَزاءِ الإِنْسَانِ عَلَى عَمَلِهِ، وَهذِهِ التأَمُّلاتُ الدِّينيَّةُ سَيَعُوْدُ إِلَيْهَا تُولستويُ فِي كُهوْلَتِهِ كَمَا سَنَرَى عِنْدَمَا يَنْصَرِفُ عَنِ الفَنِّ إلى الدِّينِ ومَسَائِلِهِ وَدِرَاسَةِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ.

وَضَاقَتْ نَفْسُ تُولستويَ آخرَ أيامِ إقَامَتِهِ فِي القوقاز، وهو يَحمِلُهَا على الصَّبْرِ والانتِظَار، إلى أنْ أتِيْحَ لَهُ في شَهْرِ كانونَ الثّانيْ ١٨٥٤ أنْ يَتْرُكَ القوقازَ، **فنُقِلَ إلى جيشِ الدّانوبِ** بناء على طَلَبهِ!
وَعَادَ الشّابُّ في إجَازَةٍ إلى ياسنايا بوليانا بَعْدَ أنْ غابَ عنْهَا ثَلاَثَ سَنَواتٍ طَوِيْلَةٍ.

وَفي آذارَ **التَحقَ تولستويُ بجَيْشِ الدّانوبِ، في بوخارست،** وهو في السَّادِسَةِ والعِشْرِينَ، **لِيَشْهَدَ حَرْباً كَبِيْرَة،** وَيكْتَسِبَ مِنْ مُشارَكَتِهِ فِيْهَا خبْرَة جَدِيْدَة، وَسَيَسْتَغِلُّ خبْرَتَهُ هذِهِ فِي مَعارِكِ القرْمِ خَيْرَ استِغْلاَلٍ عِنْدَما يَكْتُبُ فيما بَعْدُ قِصَّتَهُ العُظْمى **(الحَرْبُ والسَّلامُ)** فَيَنْقُلُ إلى القارِىءِ صُوَراً حيّةً للحَرْبِ، تُذْهِلُهُ بِوَاقِعِيَّتِهَا وَصِدْقِهَا. وانْضمّ تولستويّ إلى الجَيْشِ الذِي كانَ يُحاصِرُ مدِيْنة **(سلستريا)**

فَشَهِدَ فِي هذا الحِصَارِ ما اخْتَزَنَهُ فِي ذَاكِرَتِهِ العجيْبَةِ مِنْ مَنَاظِرِ الموْتِ والدَّمَارِ، وَسُلُوكِ الضبَّاطِ والعَلاَقَاتِ بَيْنَهُمْ، وَحَيَاةِ الجُنُودِ في قَلْبِ النَّارِ، لِيَسْتَفِيْدَ مِنْ كُلِّ ذلكَ فِي فَنِّه العَظِيْمِ عِنْدَمَا يُؤلِّفُ (الحربُ والسَّلامُ) فَيُقَدِّمُ أرْوَعَ رِوَايَةٍ فِي الأَدَبِ الرُّوْسِيِّ كُلِّهِ.

وَفيْ شُهْرِ تشرينَ الثَّانيْ ١٨٥٤ انضَمَّ تولستويُ إلى المُدَافِعِينَ عن **حِصْنِ سباستبولَ، وَكَانَتْ جُيوشُ ثلاثِ دُوَلٍ تُحَاصِرُهُ** حِصَاراً عَنِيْفاً، وَهِي تركيةُ **وانكلترةُ وفرنسةُ**، وكانَ الرُّوْسُ يَسْتَميْتُونَ في الدّفاعِ عَنِ الحِصْنِ، وَرَاحَ تولستويُ يَتَنَقَّلُ مِنْ حصْنٍ إلى آخَرَ أَثْنَاء القِتَالِ، مُقْتَحِماً الأَخْطَارَ بِبَسَالَةٍ وإِقْدَامٍ وَقُوَّةٍ بَدَنِيَّةٍ خَارِقَةٍ أَدْهَشَتْ أَقْرَانَهُ، وَلَفَتَتْ إِلَيْهِ الأَنْظَارَ.

وكانَ الشَّابُّ يعاوِدُ لَعِبَ المَيْسِر، وَيتكَبَّدُ الخَسَائِرَ، وَفِي مَطْلَعِ عامِ ١٨٥٥ بَلَغَ مِنْ خَسارَتِهِ أَنَّهُ كتَبَ إلى وَكِيلِهِ فيْ ضَيْعَةِ ياسنايا بوليانا أنْ يَبيْعَ بَيْتَهُ فِيْهَا، لِيَدْفَعَ دُيُوْنَهُ التي غَرِقَ فِيْهَا، وكانَ الشَّابُّ يُفْضِيْ إلى مُذكِّرَاتِهِ بنَدَمِهِ، وَيَلُومُ نَفْسَهُ أَعْنَفَ اللَّوْمِ على إِدْمَانِهِ اللّعِبَ وَعَجزِهِ عَنِ التَّخَلُّصِ مِنْ هذِهِ الرّذِيْلَةِ الكَبيْرَةِ!

والعَجِيْبُ أنَّ تولستويَ لم يَكُنْ يُهْمِلُ فَنَّهُ الأَدبيَّ مَعَ كُلِّ ذلكَ، وَقَدْ كَتَبَ قِصَّةَ (سباستبولَ) وَنَشَرَهَا في مجَلةِ (المعاصِرِ) فاستَقْبَلَتْهَا الأَوْسَاطُ الأَدَبِيَّةُ فِي بطرسبورغَ ببالِغِ التَّقْدِيْرِ، وَحَظِيَ تولستويُ على أثرِهَا بشُهْرَةٍ كَبيْرَة، وَقَالَ عَنْها تورجنيفُ «إنّها مُدْهِشَةٌ، وإنَّ الدُّمُوعَ كانَتْ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيَّ وأنا أَقْرَؤهَا» وَقرأَهَا القيْصَرُ الجَدْيدُ

(الإسكندرُ الثّانيْ) الذي تَوَلّى العَرْشَ بعْدَ وَفَاةِ نيقولا الأَوّلِ في هذا العامِ (١٨٥٥)، فَنَالَتْ إعْجَابَهُ، وَحِرْصَاً على حَيَاةِ كاتِبِهَا المَوْهُوْبِ أَرْسَلَ القَيْصَرُ كِتَاباً سِرِّيّاً إلى القائدِ العامّ يُوصِيْهِ بِإبْعَادِ تولستويَ عَنْ مَواطِنِ الخَطَرِ، كَيْلاَ تَفْقدَ روسيةُ هذا الكَاتِبَ العظيمَ الذي تُبَشِّرُ مَوْهِبَتُهُ بِعَبْقَرِيَّةٍ كَبيرَةٍ.

ولمْ يَلْبَثْ تولستويُ، عِنْدَمَا قارَبَتْ الحَرْبُ مِنْ نِهَايَتِهَا، أَنِ اخْتَتَمَ حَيَاتَهُ العَسْكَرِيَّةَ، وَارْتَدَّ إلى الحَيَاةِ المَدَنِيَّةِ وَهُوَ فِي السَابِعَةِ والعِشْرِينَ، **وعَادَ إلى بطرسبورغ، لِيَجِدَ نَفْسَهُ فِيهَا أَدِيباً مَرْمُوقاً ذَا شُهْرَةٍ كَبِيرَةٍ**، لا يَسْتَطيعُ شابٌّ في مِثْلِ سِنِّهِ أَنْ يَنَالَهَا إذا لَمْ يكُنْ واحِداً مِنْ أَفْذَاذِ المَوْهُوبِينَ والنّوادر المُبرّزين.

الباب الثالث

بحثٌ عن القِمَّةِ في رِحابِ الفَنِّ

١٨٥٥-١٨٦٣ م

— ١ —

عندَمَا تَرَكَ تولستويُ سباستبولَ وَحَياةَ الجنْديَّةِ، **وعادَ إلى بطرسبورغَ** قَصَدَ مِنْ فَوْرِهِ إلى بيْتِ **تورجنيفَ**، وكانَ قَدْ تلقّى دعوَةً مِنهُ للإقامةِ عندَهُ في ضيافتِهِ، فتلقَّاهُ الأديبُ الكبيرُ بتَرْحَاب وَمَودَّةٍ، وَقَدَّمَهُ إلى الأَوْسَاطِ الأدبيَّةِ والفَنِّيَّةِ فِي بطرسبورغَ، **وكانَ تورجنيفُ يومذاكَ زعيمَ كتَّابِ روسية بعدَ وفاةِ جوجولَ**، ولكنَّ الوفاقَ بينَ الرَّجلَيْنِ لمْ يدُمْ طوِيْلاً، إذْ سُرْعَانَ ما اختلَفَا، لاختِلافِ مزاجَيْهِمَا مِنْ نَحوٍ، وللتَّنَافسِ بينَ طموحِ كلٍّ مِنْهُما، وإنْ يكُنْ خَفِيّاً، في عَمَلِهِمَا في مجالٍ فَنِّي واحدٍ: فتورجنيفُ كانَ يتحفَّظُ ويتحرَّجُ ويُجامِلُ،

وتولستويُ كانَ صريْحاً واضِحاً لا يُخفِي مَا فِي نَفْسِهِ، معَ حِدَّةِ طبْعٍ فيْهِ لا تَعْصِمُهُ حِيْناً مِنَ الوُصُولِ بِهِ إلى الحَمَاقَةِ. وهكذا فَقَدَ الضابطُ العائدُ مِنْ سباستبولَ الجوَّ الودِّيَّ الأَوّلَ الذي قُوبِلَ بِهِ فِي الأوْسَاطِ الأدبيَّةِ والفنِّيَّةِ في بطرسبورغَ، ولكنَّ الصداقَةَ التي ربطتْهُ **بالشّاعِرِ الشَّابِّ فت**، الذي كانَ ضابطاً من قبلُ مِثْلَ تولستويَ، لمْ تنفصِمْ عُراهَا، وأصبَحَ الشاعرُ مِنْ أعزِّ أصدقاء تولستويَ وأقربِهِمْ إلى قلبِهِ طَوالَ حياتِهِ.

كانَ تولستويُ لا يُخفِي انْغماسَهُ في اللهْوِ والميْسَرِ والخمرَةِ والنِّساء، وهو الذي يُنكِرُ على أصحابِهِ مِنَ الأدبَاء ورجالِ الفنِّ ما يفعَلُهُ هوَ نفْسُهُ، وقد دخَلَ الشّاعِرُ فت بيْتَ تورجنيفَ قبلَ معرفَتِهِ بتولستويَ، فرأى سيْفاً مُعلّقاً على الجدَار، فسألَ الخادِمَ عنْهُ

فأجَابَهُ: إنَّهُ سيفُ الكونتِ تولستوي، وهوَ نائِمٌ في حجْرةِ الاستِقبالِ، ودخَلَ فت إلى تورجنيفَ، فكانَ الرجلانِ يتكلمانِ همْساً، مخافَةَ أنْ يوقِظَا تولستوي، وأشَارَ تورجنيفُ إلى تولستويَ قائلاً: «هكذا تراهُ أبَداً.. الخمْرُ والغَجَريات ولَعِبُ الورقِ طوالَ الليْلِ، ثُمَّ ينامُ هكذا كأنَّهُ جُثَّةٌ هامِدَة حتّى الساعةِ الثانِيَةِ بعْدَ الظهْرِ، ولقد حاوَلْتُ أولَّ الأمْرِ أنْ أَصدَّهُ عنْ ذلكَ، ولكنّني الآنَ نفضْتُ يَدِي وتركتُهُ يفعَلُ ما يُحِبُّ!»

وغادَرَ تولستويُ بطرسبورغَ عائِداً إلى ضيعَتِهِ، وفي طريقِهِ عرَّجَ على موسكو، وزارَ بعضَ منْ يعرِفُ مِنْ ساكنِيْهَا، ومنْهُمْ أسرةُ الدكتورِ (بيرز) وزَوْجَتُهُ هيَ تلكَ الفتاةُ التيَ كانَ يُلاعِبُهَا صغِيراً، والتي كانَ يغارُ عليْهَا، ودَفعَها مرة دفعَةً آذْتْ ساقَها، وَقَدِ

استقْبَلَتْهُ معَ بناتِهَا الصغيْرَاتِ الثلاثِ فِي ابتهَاجٍ وَسُرُورٍ، ولم يكُنْ تولستويُ يَدرِيْ يومذاكَ أنَّ الوُسطَى التي كانَتْ في الثانيةَ عشْرَة ستصبِحُ بعْدَ سِتِّ سنواتٍ زوْجَتَهُ الكونتسَ تولستوي!

كانَ تولستويُ شديدَ الرَّغْبَةِ في الزَّواجِ، وقد تَعَلَّقَ حيْناً بفتَاةٍ يَتيْمَةٍ كانتْ لَهُ الوَلايَةُ عليْهَا، هي فاليريا أرسنيف، ولكنَّهُ ظلَّ مُتردِّداً في الإعْلانِ عن حُبّهِ لَهَا، ثُمَّ انصَرَفَ عنْهَا وعادَ إلى موسكو، ليقضِيَ كَثيراً من وقْتِهِ فِي الكتَابَةِ حتّى أتَمَّ كتابَهُ (**عَهْدُ الشَّبابِ**)، وبعْدَ تنقُّلٍ بيْنَ موسكو وبطرسبورغَ وضيعتِهِ، **ومطالَعَاتٍ لمُؤلّفاتِ جوتيه وهوغو وديكنز وثاكري وموليير وشكسبيرَ، عَزَمَ تولستويُ على القِيامِ برحلةٍ إلى أوربة،** هي أوْلَى

رِحْلَتَيْهِ إليْهما في حياتِهِ: الأُولَى سنةَ ١٨٥٧ والثانيةُ ١٨٦٠-١٨٦١، ولم يُغادِرْ تولستويُ روسيةَ طوالَ حياتِهِ في غيرِ هاتيْنِ الرِّحْلَتينِ.

— ٢ —

في الحادِيْ والعشرينَ مِنْ شباطَ ١٨٥٧ وصلَ تولستويُ إلى **باريسَ** بالقطارِ، ليقضِيَ فِي العاصمَةِ الفرنسيَّةِ ستَّةَ أسابيْعَ، قضاهَا في التردُّدِ على مواطِنِ اللهْوِ وَالمَسارحِ والمراقِصِ وَدَارِ الأوبِرَا والمتاحِفِ، وزيارَةِ الكنائِسِ القديْمَةِ، والمدارِسِ العُليا، والأندِيَةِ ومرابعِ الفنِّ والموسيقى، **والتَقَى في باريسَ بُعَيْدَ وصولِهِ إليهَا بتورجنيفَ**، ودَبَّ الخلافَ بينَ الصديقَيْنِ حتى بلَغَ الأمْرُ بتولستويَ أنْ دَعَا صاحبَهُ إلى مبارزَتِهِ، لولا أنْ تَدَخَّلَ بينَهُما صدِيْقٌ لهما بالحُسْنَى، وأَصْلَحَ بينَهُما، فَنَسِيَا خِلافَهُمَا، وذهَبَا مَعاً في شهْرِ آذارَ إلى مدينَةِ ديجونَ ليقضِيَا فِيهَا بضعَةَ أيامٍ قبلَ أنْ يعودَا إلى باريسَ، وقد دُهِشَ تولستويُ

لجوِّ الحرّيّةِ الاجتماعيّةِ الذي يعيشُ الفرنسيونَ فيْهِ. والذي لم يكنِ الرّوسُ يعرفونَ شيئاً عنْهُ في بلادِهِمْ.

وفي شهرِ نيسانَ **شاهَدَ تولستويُ تنفيذَ حكْمِ بالإعْدامِ** على أحدِ الرّجالِ. ورأى المقصلةَ تقطعُ عنقَهُ، فحزِنَ لذلكَ أعمقَ الحزْنِ. ولمْ ينَمْ ليلتَهُ من الألَمِ. وقد عكَّرَ هذا الحادِثُ عليْهِ صفْوَ إقامَتِهِ في باريس، فغادَرَهَا سريْعاً إلى **سويسرة.**

وفي جنيفَ التَقى تولستويُ بالكونتس الكسندرا تولستوي، وهي إحدَى قريبَاتِهِ. وكانتْ وصيفَةً لابنَةِ الإسكندرِ الثّانيْ، وقَدْ جاءتْ إلى سويسرة في صُحْبَتِهَا، وقَدْ ملأَتِ الكسندرا بعقلِهَا وملاحتِهَا وذَوقِهَا في ملابسِهَا وزينتِهَا قلبَ تولستويَ وعقْلَهُ، ولكنَّهَا كانَتْ تكبرهُ بإحدى عَشْرَةَ سنَةً. وكمْ تَمنّى لو أنَّهَا كانَتْ في مثْلِ سنِّهِ، وقد ضَنَّ على

إعجابه الكبير بها طوال حياته.

وقد تنقّلَ تولستويْ في ربوعِ سويسرة، مُتملّياً جمالَ الطبيْعَةِ فيْهَا، نحْواً مِن شهريْنِ، وقاد برحْلَةٍ منْها إلى شماليْ إيطاليةَ ليُقابِلَ بعضَ أصحابِهِ. وكانَ يُوالي وصفَ ما ترى عيناهُ مِنْ سِحْرِ الطبيعةِ وفِتنتِها في رسائلِهِ إلى عمّتِهِ تاتانيا. ورجَعَ أخيراً عَنْ طريقِ (فرنكفورت) و(درسدن) إلى وَطَنِهِ بعْدَ أنْ خسِرَ في طريْقِهِ كلَّ ما كانَ معهُ مِنْ مالٍ في اللعِبِ، وما استدانَهُ مِنْ بعضِ أصحابِهِ أيْضاً. ووَصلَ إلى ضيْعَتِهِ في آبَ، بعْدَ أنْ قضَى في بطرسبورغَ عدّةَ أيامٍ. وسيَقْضِي تولستويْ منذُ ذلكَ الحيْنِ ثلاثَ سَنواتٍ في التَّنقُّلِ بيْنَ ضيعَتِهِ ومدينَتَيْ موسكو وبطرسبورغَ قَبْلَ أنْ يَقُومَ برحلَتِهِ الثانيَةِ في أوربة.

أمّا في الضَّيْعَةِ فقَدْ كانَ تولستويُ ينهمِكْ في رِعَايَةِ شؤونِ أملاكِهِ وفلاَّحِيْهِ، ويُقْبلُ على الفلاحَةِ كأنَّهُ فَلاَّحٌ لم يُغادِرْ أرْضَ قرْيَتِهِ قَطُّ، وكانَ **يُخالِطُ الفلاّحِيْنَ**، ويحاولُ أنْ يَقُوْمَ ببَعْضِ أعْمَالِهِمْ، وَقَدْ أَحَبَّ إحدى الفلاَّحاتِ، ولمْ يستَطِعْ أنْ يُغالِبَ مَعَهَا عرامَةَ جَسَدِهِ، **وكانَ ثَمرَةَ تلكَ العلاقَةِ لمُحَرَّمَةِ وَلَدٌ لَهُ، سَيُصْبِحُ سائساً فيمَا بَعْدُ عِنْدَ أحَدِ أبنَائِهِ؛** وكانَ أحيَاناً يَعْنُفُ على فلاّحِيهِ، ويَندَمُ على عُنفِهِ أكْبَرَ النَّدَمِ، وَقَدْ شَارَكَ يَوْماً في صَيْدِ الدّبَبَةِ في الغَابَةِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ دبٌّ وَطَرَحَهُ أرْضاً وعَضَّهُ عضَّةً قويَّةً مزَّقَتْ خَدَّهُ، تحت عينِهِ اليُسرَى والجانِبَ الأيْمَنَ مِنْ جَبْهَتِهِ، ولولاَ أنّ أصحابَهُ أفزَعُوا الدُّبَّ ففرَّ هارباً لكانَ تولستويُ قد قَضَى نحبَهُ! وسَيَسْتَغِلُّ قَلَمُهُ الفنَّانُ جميعَ هذهِ

التجارب حين يصفُ أمثالها وصْفا نابضا بالحيوية والواقعية في رواياته.

وأمّا في المدينتيْن الكبيرتيْن فكان تولستوي ينصرفُ حينا إلى اللهْو والمجوْن، ويقوم حينا بزيارة الأسرِ التي يعرِفُها، وقدْ قضى في بطرسبورغ مع ابنة عمّ أبيْهِ الكسندرا عام ١٨٥٩ عشْرة أيام مِنْ أسعد أيامِ حياتِهِ، كما يقولُ في مذكّراتِهِ.

وكان تولستويّ لا ينقطعُ عنِ الكتابة: فهو ينكَبُّ على كِتابةِ قِصّتِهِ **(أهلُ القوقازِ)** كما يُنجزُ بعضَ الأقاصِيْصِ القَصِيْرَةِ، ولبّى في موسكو دعوة جماعَةِ مُحِبّي الأدَبِ الرُّوْسي فألْقى في مُنْتَداهُمْ أوّل خُطبَةٍ في حَياتِهِ، وكانَ موضُوْعَها أنّ العناصِرِ الفنّيّ في الأَدَبِ مُقَدّمٌ على جميعِ العناصِرِ الأخْرى. وهو رأيٌ سيخالِفُهُ هُوَ نَفْسُهُ كُلّ المخالفة في المرحلة

لأخيْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ.

وفوجِىء تولستويُ بِمَرَضِ أخِيْهِ نيقولا وسفَرِهِ إلَى أوربة في طَلَبِ العِلاجِ، فقرَّرَ اللّحَاقَ بأخِيْهِ المرِيْضِ لِيَرَاهُ، ويزورَ المدارِسَ في بعضِ العواصِمِ، لِيَطَّلِعَ على أنظمَةِ التّعْلِيْمِ فيْهَا، وهكذا **غادَرَ روسيةِ إلى برلينَ** في تموزَ ١٨٦٠، حيثُ أمضَى شهَريْنِ في زيارَةِ مدارِسِهَا، وحضورِ بعضِ المحاضراتِ في جامِعَتِها، ومشاهدةِ الدراسَاتِ الليليَّةِ للعمَّالِ فِيْهَا، ثُمَّ تنقَّلَ في بعْضِ المدُنِ الألمانيَّةِ الأخرَى، وهُوَ يُوالِيْ زيارَةَ أخيْهِ المريْضِ في مدينَةِ (**سودن**)، حتّى أشَارَ الأطبَّاءُ عليْهِ بنَقْلِهِ إلى الجَنُوبِ، فانْتَقَلَ تولستويُ بِهِ، وكانَتْ أختُهُمَا ماري تُشرِفُ على المَريْضِ، وَرَحَلُوا جميعاً إلى (**هيرس**) على شاطِىء البَحْرِ المتوسِّطِ، بالقُرْبِ منْ

مدينة **طولون**، وعند مرورهم بفرانكفورت أتيح لتولستوي أن يزور ابنة العم الكسندرا تولستوي.

وفي (هيرس) **اشتدت وطأة المرض على أخيه نيقولا، فقضى نحبه بين ذراعي ليون** في الثامن والعشرين من أيلول ١٨٦٠، وقد ترك مشهد موته أثراً عميقاً في نفسه، وقد غمره فيض من الحزن والتشاؤم والتفكير في مصير الأحياء إلى الموت والعدم.

وقام تولستوي بعد ذلك **برحلة إلى إيطاليه، حيث تنقل بين فلورنسة ورومة ونابولي** قبل أن يعود في أوائل عام ١٨٦١ إلى **فرنسة، ويزور باريس** ويلتقي فيها بتورجنيف، ثم يسافر الصديقان معاً إلى **لندن**، حيث يحضر تولستوي بعض المحاضرات، وبعض جلسات مجلس العموم، **وقام مع تورجنيف**

بزيَارَةِ الكاتِبِ الرُّوسيِّ الحُرِّ (هيرزن) وكان يعيشُ في المنْفَى بلندنَ، وَفِي شهْرِ شباطَ أصْدَرَ القَيْصَرُ قرارَهُ بتحريْرِ الفلاَّحِيْنَ، وعَلِمَ تولستويُّ أنَّهُ اختِيْرَ قاضِياً (حَكَماً) في إقلِيْمِهِ بينَ المالِكِيْنَ والفلاّحِيْنَ فاعتَزَمَ العوْدَةَ إلى وَطَنِهِ، **وعادَ عنْ طريقِ (بريسل)**، وفي هذِهِ المدينَةِ كانَ تولستويُّ يكتُبُ **قصَّتَهُ (بوليكوشكا)** وهيَ مأساةٌ تدوْرُ حولَ الرقِّ، وَقَدْ نَدَّدَ فِيْهَا باستِغْلالِ مَلاكِي الأَرْضِ واستعبادِهِمْ لِفلاّحِيْهِمْ وظُلمِهِمْ لَهُمْ، وتُعَدُّ أقْوَى ما كُتِبَ في الأدَبِ الرُّوسيِّ كلِّهِ فِي هذَا المَوْضُوعِ، ونالَتْ إعْجَابَ تورجنيفَ وتقديْرَهُ؛ وَفِي أواخِرِ نيسانَ وَصَلَ تولستويُّ إلى وَطنِهِ بعْدَ هذِهِ الرِّحْلَةِ التي استغرَقَتْ عشْرَةَ أشْهُرٍ، **وهي ثانيْ وآخِرُ رِحْلاَتِهِ خارِجَ روسيةَ** كما قَدَّمْنَا.

— ٣ —

كانَ تولستويُ قد أنْشَأ في قرْيَتِهِ **مدرَسَةً خاصَّةً لِتعلِيمِ أوْلادِ الفلاّحيْنَ**، وكانَتْ زِيارَاتُهُ للمَدارسِ فِي ألمانيا وسيْلةً للاطّلاَعِ على أنظمَةِ التَّعليْمِ والاقتِبَاسِ مِنْهَا في تَدْبيْرِ مَدْرَسَتِهِ وتطبيْقِ نظريَّاتِهِ في التَّعْليْمِ فِيْهَا، وكانَ يريْدُ أنْ يُشْعِرَ تلاميذَهُ بالحرِّيَّةِ التَّامَّةِ لِيُقبلُوا على التَّعَلُّمِ بلذَّةٍ وانشِرَاحٍ، وكانَ يُوجِّهُ كلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ حسْبَ مُيُولِهِ، وَلا يُلزِمُهُمْ بما لا يُريدُونَ، ولا يطلبْ مِنهُمْ إلاّ النَظافَةَ والانتِبَاهَ والصِّدْقَ فِي القَوْلِ، ولهذا تعلَّقَ التلامِيْذُ بمعلِّمِيْهِمْ، وكانوا ثلاثَةً، وكانَ تولستويُ أَحَدَهُمْ، بالإضَافَةِ إلى قسِّيسٍ كانَ يتردَّدُ على المدرَسَةِ مرَّتيْنِ في الأسْبُوعِ.

كانَ تولستويُ يحاوِلُ أنْ يتحرَّى المواهِبَ الفرديَّةَ في تلاميْذِهِ، فكانَ يَبدأ مَعَهُمْ قصَّةً ثُمَّ يسأَلُهُم أنْ يُشارِكُوا في إتمَامِهَا، لِيَسْتَشِفَّ مُيولَهُمْ ومواهِبَهُمْ، وَفِي دروْسِ القِراءةِ كانَ يتركُ لَهُمْ حرِّيَّةَ اختِيارِ ما يَقْرأُونَ، **وأَصْدَرَ تولستويُ مجلَّةً تحمِلُ اسمَ ضيعَتِهِ (ياسنايا بوليانا) لِيَبُثَّ فيْهَا آراءهُ في التَّرْبيَةِ والتَّعْليْمِ**، ويَعْرضَ فيْهَا آراء المُربِّيْنَ الغرْبِيِّينَ، ولكنَّهُ لمْ يستَطِعْ إصدارَ أكثرَ مِنْ ١٢ عَدَداً، وتكَبَّدَ فِي مَشْرُوعِهِ الصحفِيِّ خسارَةً قَدْرُهَا ثلاثَةُ آلافٍ مِنَ الروبلاتِ.

ـ كانَ غَرَضُ تولستويَ إصلاحِياً: فَهُوَ يريدُ أنْ يُحقِّقَ نَهْجاً في التَّعليمِ، يتبيَّنُ نجاحُهُ للنّاسِ فِي روسية، فيأخذُونَ بِهِ، لأَنَّ إصلاَحَ التعليْمِ ومناهِجِهِ في رأيِ تولستويَ هُوَ السَّبيْلُ الأقْصَرُ لتحقيقِ تَقَدُّمِ

الوَطنِ، وقَدْ سَرَّهُ أنْ تنْتَشرَ فِكْرَةُ مدارِسِهِ، وأنْ تَعْمَدَ وزارَةُ المَعَارِفِ إلى إعانَتِهِ، وإنْ لَمْ تكُنْ تُسَلِّمُ بآرائهِ كُلِّهَا.

كانَ تولستويُ يوالي تجارِبَهُ في حَقْلِ التَّربِيَةِ والتَّعْليمِ في وَقْتٍ كانَتْ فِيْهِ مُشْكِلاتُ التَحكيمِ بينَ الفلاّحِينَ والملاّكِينَ مَثارَ إزْعَاجٍ وإتْعَابٍ لَهُ، فقدْ نَقَمَ الأمَرَاء المالِكُونَ مِنْهُ عَطفَهُ على الفلاّحيْنَ، إذا حكمُوهُ بينَهُمْ، وازدادَ طَمَعُ الفلاّحِيْنَ في عَطْفِهِ، فأرادُوا مِنْهُ أنْ يُعطِيَهُمْ فوقَ حَقِّهِمْ، فلمّا لَمْ يُجبْهُمْ غَضِبُوا مِنْهُ، ورَاحُوا ينالُونَهُ بسُوء القَوْلِ، فلَمْ يَجِدِ بُدّاً آخِرَ الأمْرِ مِنْ أنْ يستَقِيْلَ مِنْ مُهمَّةِ التَحكيْمِ بينَ فرِيْقَيْنِ لا يَرْضَى كِلاهُمَا بأحْكَامِهِ، فأعْفِيَ منْهَا، وقدْ بَلَغَ بِهِ السأمُ حَدّاً دَفعَهُ إلى القِيَامِ برِحْلَةٍ إلى **سهولِ سمارا شَرقيَّ الفولجا** في شَهْرِ أيارَ

١٨٦٢، وعلِم وهْو في إقليْم سمارا أنّ فريقاً مِنَ الشُّرْطَةِ قَدِ اقتَحَمْوا بيتَهْ ومدْرَسَتَهْ على أعْيْنِ النَّاسِ، ولم يتركْوا جانِباً فيهِمَا مِنْ غيْرِ تفْتِيشٍ دقِيْقٍ، وقدْ عبثتِ الشُّرْطَةْ بمذكراته الخاصة وبما لَدَيْهِ مِن رسائل، وكان ارتياعْ أخْتِهِ وعمّته للحادث كبيْراً، وقَدْ أحسّ تولستويْ بجرحٍ عميْقٍ في كبريائه. فأعْلَنَ أنَّهُ إذا لم يَتَلقَّ ترضِيَةً علنِيّةً عمّا لَحِقَ بِهِ مِنْ إهانةٍ عامّةٍ فسيبِيْعُ ضياعَهْ ويْغادِرْ وَطَنَهْ، وكتَبَ إلى القَيْصَرِ كِتَاباً بذلك، حمله أحد حراسه إليْهِ، وقد استَجابَ القَيْصَرْ لشكْوى تولستوي وحقّق لَهُ ما طَلَبَ مِنْ ترضِيَةٍ، وكانَ أوّلَ انتصارٍ للكاتِبِ العظيْمِ على الحكْومَةِ في وَطَنِهِ، حقّقهْ بفضْلِ شَجاعتِهِ الأَدبيّةِ، إذا أَمَر الإسكندرُ الثانيْ حاكمَ ولايَةِ تُولا بأَنْ يذْهَبَ إلى تولستويَ ويعبّرَ لَهُ عَنْ أسَفِ القَيْصَرِ لما وَقَعَ لَهُ!

وطابَتْ نفْسُ تولستويُ باعتِذارِ الحاكمِيْن له، وسَكَتَ عنْهُ الغضَبُ، وأزمَعَ أنْ ينصَرِفَ بجِدٍّ إلى البَحْثِ عَنِ الزَّوْجَةِ التي تُعِيْنُهُ على الاستْقرَارِ وتكوينِ أسرتِهِ الصَّغِيْرَةِ، وقد بَلَغَ الرابعَةَ والثلاثيْنَ من عُمرِهِ!

ولم تَطُلْ حَيْرَةُ تولستويَ هذِهِ المرَّة، فقدْ **أقْدَمَ على خُطْبَةِ سونيا (أوصوفيا) وُسطَى بناتِ الدكتور (بيرز)** الذي يَعيْشُ مع أسرتِهِ في موسكو ــ كما قدَّمنا ــ وكانَ رجُلاً موفورَ الرِّزْقِ، له وظيفة في البَلاَطِ، وقدْ مُنِحَ لقَبَ النبْلِ جَزاء على خدماتِهِ في القصْرِ الإمبراطوريِّ، وَقَدْ علَّمَ بناتِهِ الثَّلاثَ على أيدِي المعلِّمينَ والمعلِّمَاتِ مِنَ الألمانِ والفرنسيينَ، لِيُصبِحنَ مَعَلِّمَاتٍ يكْسَبْنَ قُوتَهُنَّ بعَمَلِهِنَّ، وكانتْ سُونيا وُسْطَى الثَّلاثِ فتَاةً جميلَةً ذاتَ عَيْنَيْنِ

رَمَادِيَّتَيْنِ واسِعَتَيْنِ، وَوَجْنَتَيْنِ مُتَورِّدَتَيْنِ، وكانتْ مُولَعَةً بالأدَبِ والتَّصْوِيْرِ والمُوسيقى، وعندَما تمَّتْ خُطبَةُ تولستويَ لَهَا، وقَبلَتْ بِهِ زَوْجاً لَهَا، **دفَعَ إليْهَا مذكّراتِهِ لِتَقْرأَهَا وتَطَّلِعَ منْهَا على حَقِيْقَتِهِ وتَعْرِفَ أنَّهُ ليسَ نَقِيَّ السِّيْرَةِ مِثْلَهَا**، وَسَهِرَتْ سونيا إلى الصبَاحِ معَ المذكَّراتِ، وبكَتْ كثِيْراً للصُّوْرَةِ التي ترسمُهَا صفَحَاتُهَا للزَّوْجِ المُقْبِلِ، وعندَمَا أقبلَ تولستويُ علَيْهَا سأَلَهَا الصفْحَ والمَغْفِرَةَ، فأجابَتْهُ إليهِمَا، وبَكَتْ وبكَى مَعَهَا.

وَتَمَّ الزّفافُ، وحَمَلَ تولستويُ عروسَهُ في عرَبةٍ فَخْمَةٍ إلى (ياسنايا بوليانا) لقَضَاء شَهْرِ العَسَلِ فِيْهَا، وَبَدأَ الزَّوْجُ يتحدَّثُ في مذكّراتِهِ عنْ **سعادَتِهِ الزّوْجيَّةِ وحُبِّهِ لِعَروسِهِ الفاتِنَةِ**، وَكَتَبَتِ الزّوْجَةُ إلى أخْتِهَا تَصِفُ لَهَا سعادَتَهَا وَحُبَّ زوجِهَا لَهَا «حُباً

بَلَغَ مِنَ القُوَّةِ حَدّاً تَخْجَلُ وتَفْزَعُ مِنْهُ، لأنَّهَا لا تَتَبَيَّنُ لَهُ سَبَباً!»

كانَتِ السَّعادَةُ تغمرُ بأجنِحتِهَا الزَّوْجَيْنِ الحبيبَيْنِ، وَفِي حزيرانَ عامَ ١٨٦٣ **رُزِقَا بغلامٍ سَمَّيَاهُ (سيرجي)**، فازدَادَتْ بهجةُ الأسرةِ بِهِ، واحتَفَلَ تولستويُ بعِيْدِ ميلادِ زوجَتِهِ احتِفَالاً صاخِباً، فازْدَادَتْ تعلُّقاً بِهِ، وانصرَفَ الزَّوْجُ إلى العِنَايَةِ بضَيْعَتِهِ وأمْلاكِهِ، **وكانَتِ الكونتسُ تولستوي تساعِدُهُ** في تدبِيْرِ شُؤونِهِ الماليَّةِ، وتَنْهَضُ بدَوْرِ رَبَّةِ البيْتِ عَلَى نَحْوٍ يستَدْعِي الإعجَابَ؛ **وكانَ على تولستويَ وقَدِ اطمأنَّ إلى حَيَاتِهِ أنْ ينصَرِفَ إلى فنِّهِ لِيَبْلُغَ بِهِ القِمَّةَ.**

الباب الرابع

تولستوي في أَوْجِ فَنِّه وروائعِه الأدبيةِ

١٨٦٣-١٨٧٧ م

ـ ١ ـ

بدأ تولستوي بعد زواجه مرحلة جديدة من حياته، فزوجته امرأة تحسن التدبير، وقد دفعته إلى أن يتخلى عن المشاغل التي لا ترى لها جدوى، مثل المدرسة ومخالطة الفلاحين، لينصرف إلى تدبير أمور ضيعته وتنظيم إيراداتها، فأصبح الرجل يعنى بتربية الخيل والضأن والأبقار والخنازير وخلايا النحل، ويزرع الحدائق وينشيء الغابات، ولم ينس مع ذلك موالاة عمله الفني في الكتابة، وقد نشر قصته **(أهل القوقاز)** في مطلع عام ١٨٦٣ بعد أن ظل يعيد النظر في كتابتها مدة عشر سنوات، فجاءت آية من آيات الأدب الروسي، وعدها

النّقادُ خيْرَ ما كَتَبَ تولستويْ قبْلَ أنْ يبلغَ أوْجَ فنِّهِ العظيمِ في روايتَيْهِ الرائعتَيْنِ: (الحربْ والسلامْ) و(أنّا كارنينا).

أمّا (الحربُ والسّلامُ) فقَدْ أمضى ستَّ سَنَواتٍ في كتابَتِها، وكانَتْ زَوجَتُهُ تعاوِنُهُ في نَقْلِ ما يكْتُبُ ومراجَعَتِهِ. وقَدْ بَذَلَ المُؤلِّفُ في تأليفِ (الحربِ والسلامِ) جُهوداً جَبّارةً. إذ أربتْ قصّتُهُ على ألفِ صفحَةٍ، وكانَ يَجدُ في تَشجيعِ زوجَتِهِ وَعَوْنِهَا سعادَةَ نَفْسِهِ وراحَتَها. وكَتَبَتْ في ربيعِ عامِ ١٨٦٧: «لقَدْ ظلَّ ليونْ يكتبُ طوالَ الشتاء، وإنَّهُ لشديدُ الاهتياجِ والانفعَالِ. تَمتَلِىءُ عيناهُ أحياناً بالدُّموعِ، وإنّي لأعتقِدُ أنَّ قصّتَهُ هذهِ سوفَ تكونُ أعجُوبَةً».

وأصبَحَ تولستويُ يُنفِقُ أكثرَ وقْتِهِ في الكتابَةِ،

وَقَدْ أقْبَلَ على إنْجَازِ روايَتِهِ الضَخْمَةِ بحَمَاسَةٍ. وكَانَ يزورُ مواقِعَ المعارِكِ التي يصفُهَا في قصَّتِهِ: زارَ في خريفِ ١٨٦٥ مكانَ موقِعَةِ بورودينو. ودَرَسَ بعُمْقٍ كيفَ دارتْ رحَى المعرَكَةِ. وسَعَى إلى مقابَلَةِ مَنْ بَقِيَ على قيْدِ الحياة مِنَ الذينَ شارَكُوا في تلكَ المعْرَكَةِ التي وقَعَتْ عامَ ١٨١٢. كمَا كانَ يزورُ المتاحِفَ والمكتباتِ لمُراجَعَةِ الكتُبِ والمخطوطَاتِ التي لَهَا صِلةٌ بعَهْدِ الاسكندرِ الأوّلِ، ومَا كانَ للنَّاسِ في عصرِهِ من نزَعَاتٍ سياسيَّةٍ أو فِكريَّةٍ أو اجتماعِيَّةٍ، ليستَمِدَّ إطاراً واقِعياً لأحداثِ روايَتِهِ الخالِدَةِ.

إنَّ موضوعَ روايَةِ الحَرْبِ والسَّلامِ هو ذلكَ الهجُومُ الهائِلُ الذي قامَ بِهِ نابوليونُ على روسية إذِ اقتَحمَ أراضيَهَا، مواصِلاً زحْفَهُ الكبيرَ حتّى وصَلَ

إلى عاصِمَتِهَا موسكو، ثُمَّ ارتَدَّ مُنْسَحِباً، خائباً مقهُوراً، مهزُوماً لأوَّلِ مرَّةٍ في سجلِّ حُروبهِ الكُبْرَى، وكانَتْ هزيمَتُهُ هذِهِ بَدْءَ سقُوطِهِ وأفولِ نَجْمِهِ، ولَمْ يكُنْ سببُ هزيمَتِهِ اصطدامَهُ بجَيْشٍ أعظَمَ مِنْ جيْشِهِ، وإنَّمَا لأنَّهُ واجَهَ شَعْباً اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُ على ألاَّ يُقْهَرَ، وأنْ يَرُدَّ المُعتَدِيَ المُغِيْرَ على أرْضِهِ ويُحرِّرَهَا مِنَ الغُزَاةِ!

لمْ يُعالِجْ تولستويُ هذَا الموضُوعَ على النَسَقِ الرّوائيِّ المَعْرُوفِ الذي يتطَلَّبُ بَسْطَ المَوضُوعِ ثُمَّ الوُصولَ إلى النتيجَةِ، بلْ سَلَكَ فيهِ **أسْلُوباً قريباً مِنَ المَلاحِمِ الشعريَّةِ** التي أبْدَعَهَا خيالُ الأقْدَمينَ، واستَطَاعَ بذلكَ أن يُصوِّرَ في روايَتِهِ حياةَ أمَّةٍ في فَتْرَةٍ عصيبَةٍ مِنْ فَتَراتِ حياتِهَا، **وقَدْ وَصَفَ الكاتِبُ العبقَرِيُّ صُمُودَ الشّعْب الرُّوسي في**

وجْهِ الغَزْوِ بإتقانٍ بَلَغَ أقْصَى ما وَصَلَ إلَيْه طُموحُ فَنَّانٍ قَبْلَ تولستويَ أو بَعْدَهُ. وقَدْ أعارَ شخصيّاتِ روايَتِهِ ملامِحَ حيَّةً لأشْخَاصٍ عَرَفَهُمُ الكاتِبُ في الحيَاةِ، مِنْ أفْرادِ أسرَتِهِ وأقارِبِهِ وأصدِقَائِهِ ومعارِفِهِ، وقَدِ اتّفَقَ النُّقَّادُ على أنَّ شخصيَّةَ (بيير) في الحربِ والسلامِ فيهَا مَلامِحُ كثيرة مِنْ صورَةِ تولستويَ نَفْسِهِ، وأنَّ شخصيَّةَ (ناتاشا) الصغيرةِ المَرِحةِ فيهَا مزيجٌ مِنْ ملامِحِ زَوْجَتِهِ (سونيا) وأختِهَا (تانيا) وكانَتِ الأخْتُ الصغيرَةُ عزيزَةً على تولستويَ حتّى إنَّهَا لَتُثيرُ أحيَاناً غَيْرَةَ الأخْتِ مِنْهَا على زوْجِهَا.

أمّا الشخصيَّاتُ التَّاريخيَّةُ الحقيقيَّةُ في الرِّوايَةِ، مثلُ الإسكندرِ الأوّلِ وكوتوزورفَ واسبرانسكي ونابوليونَ بونابرت، فقَدْ حَرَصَ

تولستويُ أنْ يُعيرَهَا ملامِحَهَا الواقعيَّةَ، إلاّ أنّ صورَةَ نابوليونَ كانَتْ تشمَلُ نقائصَهُ وتتَغافلُ عَنْ مَزَايَاهُ، ويبدُو أنَّ تولستويَ تعمَّدَ ذلكَ، تقوِيَةً لمَلْحَمتِهِ الوَطنِيَّةِ ودَعْماً للقوميَّةِ الرّوسيّةِ.

والبطَلُ الحقيقِيُّ فِي ملحَمَةِ (الحربِ والسلامِ) هوَ الشَّعْبُ الروسِيُّ كلُّهُ، مجتَمِعاً وراء هدَفٍ واحِدٍ في كِفَاحِهِ المَجيدِ فِي وجْهِ العدوِّ الفَاتِحِ، وتَدُورُ أحدَاثُ الرّوَايَةِ لتُصوِّرَ حروبَ نابوليونَ طوالَ عشْرِ سَنَوَاتٍ (مِنْ عامِ ١٨٠٥ إلى عامِ ١٨١٥) فوقَ مسْرَحٍ هائلٍ يشْمَلُ الأرْضَ الرُّوسيَّةَ كُلَّهَا ورقعَةً كبيرَةً مِنْ أوربة، ولَوْلا قدرةُ تولستويَ الفنيَّةُ الفذَّةُ وعبقريَّتُهُ المُبدِعَةُ لَمَا استطَاعَ أنْ يَجْمَعَ فِي كُلّ واحِدٍ متسجِمٍ ومُترابِطٍ جُمْلَةَ تلكَ الأحداثِ في خِلالِ تِلكَ السَنَوَاتِ العَشْرِ فوْقَ ذلكَ المَسْرَحِ

الهائلِ المترامي الأطرافِ، **والنُّقَّادُ يَعُدُّونَ رائعةَ تولستويَ هذهِ مُعْجزَةً فنيَّةً، ويُسمُّونَها (الإلياذةَ الحديثَةَ) ويَعُدونَها أعظمَ روايةٍ عالَميَّةٍ** أبْدَعَتْها عبقريَّةُ فنَّانٍ عظيمٍ، وهي تُمثِّلُ أسمَى ما وَصَلَ إليْهِ الفَنُّ القصصِيُّ في روسية فِي القرنِ التاسعَ عشَرَ، وهو عصرُ نُبُوغِ فنِّ الرِّوايَةِ، بلْ هي إحدَى آياتِ هذا الفنِّ فِي العالَمِ كلِّهِ، **ويَعُدُّهَا بعضُهُم أعظَمَ قِصَّةٍ ظَهَرَتْ في أدَبِ الدُّنيا قاطِبَةً.**

لقَدْ بَلَغَ تولستويُ في رائعَتِهِ الخالِدَةِ قمَّةَ مجدِهِ الأدبِيِّ، وأصبَحَ مؤلِّفُهَا مِنْ أجلِهَا أعظَمَ كاتِبٍ في عصرِهِ، وحقَّقَ لنفْسِهِ بِهَا الخلودَ على مَرِّ الأجْيالِ.

— ٢ —

بَلَغَ تولستويُ أوْجَ فنِّهِ في روايَةِ (الحربِ والسلامِ) وكانَ عليْهِ أنْ يُوالِيَ الجهْدَ للاحتِفَاظِ بالقمَّةِ التي وَصَلَ إليْهَا، فأخذَ يَبْحَثُ عنْ موضوعٍ جديدٍ لروايَةٍ أخرى، وقدْ خُيِّلَ إليْهِ حيناً أنَّ شخصِيَّةَ القيصَرِ العظيمِ بطرسَ الأكبرِ تُقَدِّمُ إليْهِ مادَّةً غنيَّةً لعَمَلٍ فنِّيٍّ كبيرٍ، فظَلَّ طوالَ سِنَتَيْنِ يُطالِعُ كلَّ ما كُتِبَ عنْهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِ الموْضُوعِ كلِّهِ، لأنَّهُ وجَدَ فِي إصلاحَاتِ القَيْصَرِ التي قامَتْ على إدْخالِ النُّظُمِ والتَّقاليدِ الغَرْبِيَّةِ إلى روسية إفْسَاداً لفَضَائلِ الرّوسِ القديمَةِ، وليس في إمكَانِهِ أنْ يَعُدَّهَا أعمَالاً جَلِيلَةً!

وانْهَمَكَ تولستويُ حِيناً في قِراءةِ الفلْسَفَةِ،

وكانَ تشاؤمُ شوبنهاورَ ينالُ إعجابَهُ ويدفَعُهُ إلى إطالَةِ التأمُّلِ والاستسلامِ للهُمومِ، وساءتْ صِحَّتُهُ واشتَدَّ إحساسُهُ بالتَّعَبِ وبحاجَتِهِ إلى الرّاحَةِ، فسافَرَ مع بعْضِ أفرادِ أسرتِهِ إلى جَنُوبِ القوقازِ، صيفَ عامِ ١٨٧١ وقضى في سمارا مدّةَ شهرَيْنِ، وأمْضى أوقَاتاً هانِئَةً في مُحيطِ قبائِلِ الباشكيرِ، فكانَ يَلْبَسُ ملابِسَهُمْ، ويتكلّمُ اللغَةَ التترِيَّةَ التي تعلّمَها في الجامِعَةِ، في تفاهُمِهِ مَعَهُم، ويعيشُ في خِيامِهِم عيشَةً بدوِيَّةً، ويأكُلُ طعامَهُمْ وقوامُهُ لحمُ الضأنِ كُلَّ يوْمٍ، كَمَا كانَ يشرَبُ لبَنَ الأفراسِ المُخَمَّرِ، وكانَ يجِدُ في كُلِّ ذلكَ بَهْجَةً لروحِهِ ومُتْعَةً لنفْسِهِ، وكانَ يُوالي الكِتابَةَ إلى زوجَتِهِ ليحدِّثَها عَنْ حياةِ تلكَ القَبائِلِ وأحوالِهَا وطباعِهَا وعاداتِها، وبَلَغَ مِنْ إعجابِهِ بتلكَ الحياةِ الفِطْرِيَّةِ الساذَجَةِ للنّاسِ هناكَ

أنِ اشتَرَى إحدَى الضِّيَاعِ في تلكَ الجِّهَاتِ، ليأتيَ إليْهَا فِي الصَّيْفِ مع أسرتِهِ.

عادَ تولستويُ مِنَ القوقازِ إلى (ياسنايا بوليانا) ليعاوِدَهُ السأمُ. السأمُ مِنْ حياتِهِ ومِنْ كلِّ ما يُحيطُ بِهِ، وأحسَّتْ زوْجَتُهُ أنَّ شيْئاً مَا طَرأَ على حَيَاتِهِمَا الزّوجيَّةِ فكَتَبَتْ في مذكراتِهَا: «لقد فَقَدْتُ إيمَانِي الشَّدِيدَ بالحياةِ والسعادَةِ، إنَّ ليونَ لَمْ يعُدْ ذلكَ الذي عَهِدْتُهُ مِنْ قبلُ، وهُوَ يقولُ: إنَّهَا الشَّيْخُوخَةُ، وأنا أقُولُ: إنَّهُ المَرَضُ! ولكنَّ هذا الشيءَ كيفَمَا كانَ أمرُهُ قَدْ وقَعَ بيننَا!» ولم تكُنِ الكونتسُ مُخْطِئَةً في هواجِسِهَا، فقَدْ كانَ تولستويُ ــ كَمَا عرفنَا مِنْ مذكَراتِهِ أيْضاً ــ شَدِيدَ التَّفْكيرِ في تِلكَ الأيَّامِ بإخْفَاقِهِ في زَوَاجِهِ، وشكواهُ من وحدَتِهِ العَقليَّةِ والرُّوحيَّةِ.

وانصرَفَ تولستويُ إلى **وَضْعِ كتابٍ لِمُطالَعَةِ الأطْفَالِ**، جعَلَ عنوانَهُ (أ ب ث) وَيَتألَّفُ مِنْ عددٍ مِنَ القِصصِ، بَنَى بعضَهَا على مَشاهِدَ مِنْ حَياتِهِ، واستَمَدَّ بَعْضَهَا الآخَرَ مِنْ مصادِرَ هنديَّةٍ وعربيَّةٍ وغيْرِها، وحاوَلَ أنْ يُطبِّقَ فيها آراءَهُ في تربِيَةِ الطِّفْلِ، وكانَ يحلمُ أنْ يُصبِحَ كتابُهُ أداة لتنشِئَةِ الأطْفَالِ في روسية عَلَيْهِ، جِيْلاً بعْدَ جيْلٍ. وعندَمَا صدرَ الكتَابُ في أواخِرِ عامِ ١٨٧٢ كَثُرَ نَقْدُهُ في الصُّحفِ، ولمْ يَلْقَ ذُيُوعاً وانتِشَاراً في ذلكَ الحِيْنِ، ولكنَّهُ سيَعُمُّ انتشارُهُ فيما بَعْدُ، **ويُصبِحُ خَيْرَ كتَابٍ لتعليمِ الأطْفَالِ في روسيةَ!**

لمْ يَلْبَثْ تولستويُ أنِ اهتَدَى إلى مَوْضوعِ روايَتِهِ الجَدِيدَةِ **(أنّا كارنينا)** فانكَبَّ على كِتَابَتِهَا، في هذا العَامِ، وقَدْ بَلَغَ فيهِ الرّابِعَةَ والأرْبعينَ مِنْ عُمرِهِ،

وابْتَهجَتْ زَوْجَتُهُ بِعَوْدَةِ الكاتِبِ العَبْقَرِيِّ إلى حَقْلِ إبْدَاعِهِ العظِيمِ.

تَرَكَ تولستويُ في رائِعَتِهِ الجدِيدَةِ الموضوعَاتِ التاريخيَّةَ، وبَنَى الرِّوايَةَ على مَوْضُوعٍ اجتماعيٍّ يُعالِجُ مشكِلَةً خَطِيرَة، هي مشكِلَةُ الزَّوَاجِ غيرِ الموَفَّقِ، وكانَ إقليمُ (تولا) شَهِدَ قبلَ سَنَتَيْنِ حادِثاً مأساوِيّاً أثَارَ أهْلَ الإقليمِ، وكانَ مَوْضُوعاً لِتَعْلِيقَاتِهِمْ وأقْوالِهِمْ، وخلاصتُهُ أنَّ رَجُلاً كَهْلاً مِنْ أصْحَابِ الضِّيَاعِ أتَى بِفَتَاةٍ فَقِيرَةٍ مِنْ قَرِيبَاتِهِ لِتَرْعَى أمُورَ بَيْتِهِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ، وكانتِ الفتاةُ صغيرةَ السِّنِّ جَمِيلَةَ الطلعة، فأَحَبَّهَا الكهْلُ فاستسْلمَتْ لَهُ وأحَبَّتْهُ، وهي تَظُنُّ أنَّهُ سَيظَلُّ وَفِيّاً لَهَا، ولكنَّهُ لَمْ يلبَثْ أنِ اتَّخذَ مُرَبِّيَةً فرنسيَّةً لأولادِهِ، وكانَتْ فتاةً ذاتَ جَمَالٍ وسِحْرٍ، فانصرفَ الكهْلُ إليها وأهمل قريبَتَهُ

التي أكلتِ الغيْرَةُ قَلْبَها، فلَمَّا تصدّتْ لهُ طَرَدَهَا من بَيْتِهِ، فَهَامَتْ علَى وجْهِهَا فِي المَزَارِعِ والحُقُولِ. واستَوْلى عليْهَا اليأسُ فَأَلْقَتْ بِنفْسِهَا أمَامَ القِطَارِ، وَوَضَعَتْ بانتِحارِهَا نِهَايَةً فاجِعَةً لمَأساتِهَا الحَزِينَةِ، وانْتَشَرَ النَّبأ فِي الإقليمِ، وَجاء تولستويْ إلى المَحطَّةِ، حيْثُ كانَ يَجْري التَّحْقِيقُ فِي مَصْرَعِهَا، وشهِدَ جثَّةَ الفَتَاةِ المنْتَحِرَةِ، فأثَّرَ في نَفْسِهِ مَنْظَرُهَا، وَظَلَّ أَثَرُ الحادِثِ فِي نَفْسِهِ حَيّاً طوالَ سنَتَيْنِ، ثُمَّ **استَوحَى مِنْهُ مَوضُوعَ رِوَايَتِهِ الجَدِيدَةِ.**

غيرَ أنَّ فَنَّ تولستويَ العظيمَ **جَمَعَ في قِصَّةِ (أنّا كارنينا) بينَ ثلاثِ أسَرٍ: الأولى** ــ وهي أهمُّهَا في الرِّوَايَةِ ــ تُمثِّلُ الزَّوَاجَ غيرَ المُوفَّقِ، الذي يَنْتَهِي بمَأسَاة فاجعَةٍ، **والثانيةُ** تُمثِّلُ الزَّواجَ العادِيَّ، حيْثُ الزوجَةُ امرأة وفيَّةٌ مخلِصَةٌ، والزَّوْجُ بعْدَ سَنَوَاتٍ مِن

حَيَاتِهِ مَعَهَا لا يتورَّعُ عنْ خِيانَتِهَا فِي السِّرِّ مَعَ نساء أخْرَيَاتٍ، ويترك زَوْجَتَهُ الذَّابلَةَ لِتَرْبيَةِ أولادِهَا وتدْبيرِ شُؤونِ البيْتِ، **والثَّالِثَةُ** تُمثِّلُ الزَّوَاجَ السَّعِيدَ المتكافِيء الموفَّقَ، فالحُبُّ البَرِيء الطَّاهِرُ يَجْمَعُ بينَ فتَاةٍ جميلَةٍ نَقيَّةِ الصَّفْحَةِ وبيْنَ شابٍّ مِنْ نُبلاء الرِّيْفِ لا يَعْرفُ مَساوىء حياةِ المُدنِ وَلا يَرْضاها، وَيَنْتَهِي الحُبُّ المُتَبَادَلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ إلى تكْوينِ أسْرَةٍ سَعِيدَةٍ يَجْمَعُ بينَهُمَا رِباط مُقدَّسٌ لا يَنْفَصِمُ!

إنَّ الجَمْعَ بَيْنَ هذِهِ الأُسَرِ الثَّلاثِ فِي خُيُوطٍ مُتَشَابكَةٍ وَسِيلَةٌ فَنِّيَّةٌ **لإبْرَازِ التَّنَاقُضَاتِ** وإيضَاحِهَا، **وإغْنَاء الخَطِّ الأَساسِيِّ للرِّوَايَةِ، وهُوَ** حِكَايَةُ **(أنَّا كارنينا)** والأسرةِ الأُوْلى التي تُمَثِّلُ مأسَاتَهَا التعِسَةِ: فأنَّا كارنينا الفَتَاةُ المترَفَةُ النَاعِمَةُ التي تَعِيشُ في أرْقَى الأَوْسَاطِ التي عَرَفَتْهَا روسيَة القَيْصَرِيَّةُ، تَتَزَوَّجُ

مِنْ رَجُلٍ مُتَقَدِّمٍ في السِّنِّ، واسِعِ الجَاهِ والثَّراءِ، بُغْيَةَ أنْ تُؤَمِّنَ لنَفْسِهَا حَيَاةً ناعِمَةً مُتْرَفَةً، بَعْدَ زَوَاجِهَا، غَيْرَ أَنَّ الزَّوْجَ لم يكُنْ يَنْظُرُ إلى زَوْجِهِ إلاّ عَلَى أنَّهَا مَتَاعٌ يُكمِّلُ بِهِ مَظَاهِرَ الجَاهِ والثَّرْوَةِ العَرِيضَةِ لَدَيْهِ، وتُدرِكُ الفَتَاةُ بَعْدَ زَوَاجِهَا حَقِيقَةَ وَضْعِهَا، فَتَثُورُ في أعْمَاقِهَا، وتُقْدِمُ على التَّعَلُّقِ بشَابٍّ مِنَ النُّبَلاءِ، وَتَنْدَفِعُ فِي عَلاقَتِهَا الآثِمَةِ بِهِ، تَعْوِيضاً عَمَّا تُعانِيهِ في حيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ الفَاشِلَةِ، وهِيَ تَحْسَبُ ذلِكَ انتِقَاماً مِنْ موقِفِ زَوْجِهَا، وتَسُوءُ سمعَتُهَا حتَّى تُصبِحَ مُضغَةً في الأَفْواهِ، وتَغْدُو عَلاقَتُهَا بعَشِيقِهَا خَطَراً يُهدِّدُ مُسْتَقْبَلَهُ، فَيَهْجرُهَا، فلا تَجِدُ العَاشِقَةُ المَهْجُورَةُ بُدّاً مِنَ الانْتِحَارِ، فتُلقِي بنفْسِهَا أمامَ عَجَلاتِ القِطَارِ!

هذهِ هِيَ رائِعَةُ تولستويَ الثانِيَةُ التي لَقِيَتْ منذُ

ـدورهَا إقْبَالاً مِنَ القرّاء عَلَيْهَا، وبذلك **تَوطَّدَتْ** ـكانَةُ **مؤلِّفِهَا العبْقَريِّ العظيمِ في القمَّةِ**، وكانَ ـغَهُ مِن كتابَتِهَا في نيسانَ ١٨٧٧ وَقَدْ غدَا في ـتاسِعَةِ والأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرهِ.

كانَ تولستويُ خلالَ السنواتِ الخَمْسِ التي كانَ يكتُبُ خِلالَهَا (أنّا كارنينا) **يتَرَدَّدُ في كُلِّ صيفٍ على القَرْيَةِ التي اشترَاهَا في سمارا**، وَقَدْ عَقَدَ هناكَ عَدداً من **الصَدَاقَاتِ مع بعْضِ المُسْلِمِينَ**، ومنهُمْ **محمّدُ شاه** الذي كانَ شديدَ الإعجَابِ بأَمَانَتِهِ ودماثَةِ طبْعِهِ وحِرْصِهِ على كرامَتِهِ، وقَدْ أَوْكَلَ إليْهِ حِراثَةَ أَرْضِهِ والإشرَافَ على ضَيْعَتِهِ، وفي صيفِ ١٨٧٣ **حَصَلَتْ مجاعَةٌ في تلكَ البلادِ**، لِسُوءِ المَحْصُولِ خِلالَ عامَيْنِ مُتَوالِيَيْنِ، فأودَتْ بحَيَاةِ الكثيرينَ، **فأَرْسَلَ تولستويُ صَيْحَةَ استِغاثَةٍ**

نَشَرَهَا في صُحُفِ موسكو، فانهَالَتِ التَّبرُّعَاتُ على الإقْلِيمِ الجَائِعِ، وكَتَبَ تولستويُ إليى ابنَةِ العمِّ ألكسندرا فَحَمَلَتْ أخبارَ المَجَاعَةِ إلى أوْسَاطِ القصْرِ الإمبراطوريِّ، وَتبرَّعَتِ القيصَرَةُ نَفْسُهَا بِمَبْلَغٍ كبيرٍ، وَبلَغَ المالُ المُتَبَرَّعُ بِهِ مِنَ الشَّعْبِ مليونَي روبل، وأغِيثَ النَّاسُ في تلكَ الأَصْقَاعِ النَّائيَةِ، وكانَ وجُودُ تولستويَ هناكَ رحْمَةً مِنَ الله بعبَادِهِ، بعْدَ نِقمَةِ المجَاعَةِ المُدمِّرَةِ.

وأصِيبَ تولستويُ خلالَ هذِهِ السّنَوَاتِ أيْضاً بموْتِ أكْثَرَ مِنْ واحِدٍ مِنْ أولادِهِ، كَمَا مَاتَتِ العَمَّةُ تاتيانا، فكانَ حُزنُهُ لوفاتِهَا شَدِيداً على نَفْسِهِ، وَأحَسَّ أمَامَ فجائعِ المَوْتِ المتواليَةِ بالخَوْفِ والحَيْرَةِ، وأصْبَحَ يُطِيلُ التَّأمُّلَ في مَصِيرِ الإنسَانِ وَفَنَائِهِ، ويُحاوِلُ أنْ يُغرِقَ أحْزانَهُ بانْغِمَارِهِ في

العَمَلِ الفِلاحِيِّ. كأنَّهُ واحِدٌ مِنَ الفلاَّحِينَ. وَقَدْ كانَ في صيفِ ١٨٧٥ في سمارا يعمَلُ بِنفْسِهِ مَعَ الزُّرّاعِ في أرْضِهِ. ويخالِطُ الفَلاّحِينَ مِنَ النَّصارَى الاورثوذكس. وتَرتاحُ نَفْسُهُ لِمَا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ جيرانِهِم المسلمينَ مِنْ مَوَدَّةٍ وتَسامُحٍ.

غَيْرَ أنَّ استِغْراقَهُ في العَمَلِ لمْ يُنْسِهِ شَقَاءهُ الباطِنِيَّ الكبيرَ. فالكاتِبُ العبْقَرِيُّ يُواجِهُ أزْمَةً نفْسِيَّةً طاغِيَةً لا يَدْرِي كيفَ يَخْرُجُ مِنْها. وهُوَ دائِمُ التساؤلِ والبَحْثِ عَنْ تفْسِيرٍ لحَياتِهِ التي لا يَجِدُ لها مَعْنًى!

سَنُرافِقُ تولستويَ في طَوْرٍ جديدٍ مِنْ حَياتِهِ، يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنْ رِحابِ الفَنِّ بَعْدَ وُصولِهِ إلى الأَوْجِ فِيهِ، إلى رِحابِ الدِّينِ والفَلْسَفَةِ، بَحْثاً عَنْ حَلٍّ لأَزْمَتِهِ النَّفْسِيَّةِ الكَبيرَةِ.

البَابُ الخامِسُ

تولستويُ في رِحَابِ الدِّينِ وَالفَلْسَفَةِ

١٨٧٧-١٩١٠ م

— ١ —

تِسعُ سَنَواتٍ بعْدَ الانتِهاء مِنْ رِوايَةِ (أنّا كارنينا) قَضَاهَا تولستويُ في **البَحْثِ الدّينيّ عَنْ تَفْسِيرٍ للحيَاةِ،** وَقَدِ استبد بِهِ قَلَقُهُ النَّفْسِيُّ حتّى خِيفَ عليْهِ مِنْهُ: فَهُوَ دائمُ الإطْراقِ، يَدْفِنُ وجْهَهُ ساعَاتٍ بينَ كفَّيْهِ، ويعتَزِلُ زَوْجَتَهُ، وَيُشيحُ عَنْ أبْنائِهِ بِوَجْهِهِ، ويَسْهَرُ لَيْلَهُ مفكّراً حزِيناً، يَئِنُّ أنينَ المحمُومِ، وقِيلَ إنَّهُ لمْ يبقَ بينَهُ وبينَ الجُنونِ إلاّ خُطْوَة واحدةٌ! وهو لايَنِي يَتَساءلُ: **ما هذِهِ الحيَاةُ التي أحْيَاهَا وإلى أينَ المصيرُ؟**

لَقَدْ أقْلَعَ الكاتِبُ الفنّانُ عنْ كِتَابهِ رَوَائعِ القَصَصِ الخالِدَةِ، إذْ أصْبَحَ لا يَرَى فِيهَا إلاّ لَغْواً

وهُرَاء لا طائلَ فِيهمَا، واتَّجَهَ بأفْكارِهِ نحْوَ الدِّينِ ومَسَائِلِهِ، **وأخَذَ يتردَّدُ على الكنِيسَةِ ويُزاوِلُ الطُّقُوسَ الدّينيَّةَ، ويزُورُ الأضْرِحَةَ وقُبُورَ الأوْلياء**، ويتْلُو الكُتُبَ الدِّينيَّةَ، ولكنَّ قلَقَهُ الباطنيَّ لمْ يَهْدأ، وظلَّ إحساسُهُ بشقَائِهِ عظِيماً، وانكَبَّ على صِيَاغَةِ أفكَارِهِ الدِّينيَّةِ، وكانَتْ زوجَتُهُ تأسَفُ لهذا الاتِّجاهِ الجَدِيدِ في تفْكِيرِهِ، وكَتَبَتْ إلى أخْتِهَا تَصِفُ جهودَهُ المضنِيَةَ في أبحَاثِهِ الدِّينيَّةِ بقولِهَا: «كلُّ ذلكَ **لِيُثْبِتَ أنَّ الكنيسَةَ لا تُوافِقُ الرِّسَالَةَ المسيحيَّةَ**، مع أنَّهُ لا يَكَادُ يُوجَدُ في روسية عشْرةُ أشْخَاصٍ يهْتمُّونَ بهذِهِ المُبَاحِثِ!! ولكنَّني لا أستطيعُ أنْ أعمَلَ شيْئاً، وكلُّ ما أرْجُوهُ أنْ ينتَهِيَ مِنْ هذَا الطَّورِ في أقْرَبِ وقْتٍ، وأنْ تَزُولَ هذِهِ الحالَةُ كما تزولُ الأمْراضُ!»).

وَقَدْ وَصَفَ تولستويُ في **كتابِهِ (اعترافي) هذِهِ الأزمَةَ الروحيَّةَ** التي اكتوى بنارِهَا، والتي أظْهرَتْهُ على أنَّهُ كانَ على ضَلالٍ في كُلِّ ما تَقَدَّمَ مِنْ حياتِهِ، فكلُّ ما كانَ يتمسَّكُ حتّى اليَوْمِ بِهِ ويسْعَى إليْهِ مِنْ عظمَةٍ وثَراءٍ وأُبَّهَةٍ ومجْدٍ أدبيٍّ وشهْرَةٍ، كُلُّ ذلكَ باطلٌ، أمّا الخيرُ كلُّ الخيْرِ فهُوَ أنْ يَعْمَلَ الإنسانُ لِسعَادَةِ غيْرِهِ، متواضِعاً راضِياً بالفَقْرِ، مُنكِراً للذّاتِ، ولهَذا **كانَ على تولستويَ أنْ يَبْدَأَ في جِهادِ نفْسِهِ، لِتَصْحيحِ ذاتِهِ**، والسَّيْرِ بِهَا في طريقِ الهدايَةِ بعْدَ طولِ ضَلالٍ!

لقَدِ اعترَفَ تولستويُ بصراحَةٍ وشَجاعَةٍ بالصَّفَحاتِ السوْدَاءِ مِنْ ماضِيهِ، حينَ كانَ يشتَرِكُ في الحُرُوبِ، وقَتْلِ النّاسِ، ويخوضُ المُبارَزاتِ، ويُنفِقُ المالَ الذي كانَ يحصَلُ عليْهِ مِنْ جهْدِ

الفلاّحينَ وكدِّهِم في القِمَارِ واللهْوِ والخَمْرَةِ ومعاشَرَةِ النِّساء الفاسِدَاتِ، ويَسْلُكُ كلَّ سبيلٍ لِلْفِسْقِ والعُهْرِ، ولا يَعِفُّ عَنِ المُراوَغَةِ والخِداعِ!

اعْتَرفَ بأنَّ حياتَهُ في تلكَ الأيَّامِ كانَتْ كلُّها كَذِباً وسَرِقَةً وفِسْقاً وزِناً وسُكْراً وتَمَرُّداً وقَتْلاً، ومعَ ذلكَ فَقَدْ كانَ في نظَرِ النَّاسِ الرجُلَ المُحْتَرَمَ المُثَقَّفَ الفَاضِلَ، وهوَ عندَما بدأَ يكتُبُ، لا لِغَرَضٍ إلاّ لكي يُرضِيَ غُرورَهُ، ويَحْصلَ على المَالِ والشُّهْرَةِ، كانَ مضْطَرّاً إلى مُسايَرَةِ رأيِ النَّاسِ، فيخْفِي (**الخيْرَ**) الذي يُحِبُّهُ، ويقولُ (**الشَّرَّ**) الذي يُحِبُّهُ النَّاسُ، ويَعْتَرِفُ تولستويُ بأنَّهُ لَقِيَ على أسَاسِ هذا الكَذِبِ والخِدَاعِ والنِّفَاقِ كُلَّ نجاحٍ فِي كتابَاتِهِ وَفِي تفْكِيرِهِ، **ثُمَّ استيْقَظَ ضميرُهُ بعْدَ طولِ نَوْمٍ لِيُدْرِكَ أنَّ الطَّريقَ التي قَطَعَهَا ليسَ فيها**

غيرُ الشَّرِّ والضَّلالِ، وأنَّ الحياةَ على هذا المنْوالِ تافِهةٌ لا مَعْنَى لَهَا، وأنَّ عليْهِ أنْ يَجِدَ تفْسِيراً لحياتِهِ ومَصِيرِهِ، وإلاّ فَمَا عَلَيْهِ إلاّ أنْ يَضَعَ نِهَايَةً لوجُودِهِ وَبقَائِهِ!

لَقَدْ كادَ تولستويُ ييأَسُ مِنْ حَياتِهِ، بعدَ طُولِ بَحْثٍ وتأمُّلٍ ودِراسَةٍ، حتَّى اهتَدَى في نِهَايَةِ المَطَافِ إلى **الإيمَانِ بأنَّ الإنْسَانَ جُزْءٌ مِنْ «غَيْرِ المَحْدُودِ» الإلهِ اللانِهَائِيِّ**، وأنَّ عَلَيْهِ لِكَيْ يَهْتَدِيَ إلى تَفْسيرِ لحيَاتِهِ أنْ يَحيَا حَيَاةً صَالِحَةً مُسْتَقِيمَةً فاضِلَةً، وأنْ يَعْمَلَ ليكْسَبَ خُبْزَ يَوْمِهِ بعَرَقِ جَبينِهِ، وليُحَافِظَ على نَفْسِهِ وعَلَى جِنْسِهِ، **فَيَقْضِيَ أيَامَهُ في العَمَلِ المُثْمِرِ الصَّالِحِ لَهُ ولِغَيْرِهِ وللعَالَمِ كلِّهِ!**

وانكَبَّ تولستويُ بَعْدَ كِتَابِ (اعترافي) على

أبْحَاثِهِ الدِّينيَّةِ، وَقَامَ بدِرَاسَةٍ جادَّةٍ **لِلْمُوازَنَةِ بَيْنَ الأَنَاجِيلِ الأَرْبَعَةِ**، وانْتَهَى إلى أنَّ المسيحيَّةَ **في أصُولِهَا البسيطَةِ تُقَدِّمُ تَفْسِيراً عَمِيقاً لِلْحَيَاةِ**، يُوافِقُ أسْمَى ما تَصْبُو إلَيْهِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ مِنْ مطالِبَ، يُمكِنُ أنْ تُحَقِّقَ لَهَا الخَلاصَ والسَّعَادَةَ علَى الأَرْضِ، في هذِهِ الحيَاةِ الدُّنيَا، قبْلَ تَحْقِيقِ ذلكَ لَهَا فِي الحَيَاةِ الأُخْرَى، **على عَكْسِ ما تُقَدِّمُهُ عَقِيدَةُ الكنِيسَةِ من تَخْرِيجاتٍ وتَعْقِيدَاتٍ يَرْفُضُهَا العَقْلُ**، ولا يَسْتَرِيحُ القَلْبُ إلى الإِيمَانِ بِهَا. فَخُلاصَةُ ما فَهِمَ تولستويُ مِنَ المسيحِيَّةِ أنَّ **«مَمْلَكَةَ السَّمَاء»** ليْسَتْ مَكَاناً أعِدَّ للمؤمنينَ الذينَ نَجَّاهُمْ إيمَانُهُمْ، ولكنَّهَا **حَالٌ يَمكِنُ أنْ يُحقِّقَهَا على هذِهِ الأَرْضِ مَنْ يَعِيشُ وَفْقَ مَا جَاءَ بِهِ المسيحُ**، فتَعَالِيمُ المسيحِيَّةِ تُرْشِدُهُ إلى هذا الكَمَالِ

إرْشَاداً عَمَلِيّاً يَقُومُ علَى العَقْلِ، لا عَلى الخَيَالِ والوَهمِ. وَقَدْ لَخَّصَ تولستويُ غايَةَ المسيحِيَّةِ كَما فَهِمَهَا مِنْ تعالِيمِ المسيحِ في خَمْسَةِ أُمُورٍ، إذا عَمِلَ بِهَا المَرْءِ حَقَّقَ مَمْلكَةَ السَّمَاء عَلى الأَرْضِ وَهِيَ:

١ ـــ ألاَّ يَغْضَبَ الإِنْسانُ

٢ ـــ وأنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ جَمِيعاً بالحُسْنَى

٣ ـــ وألاَّ يَقْرَبَ الزِّنَا

٤ ـــ وألاَّ يُقْسِمَ قَطُّ (أَيْ ألاَّ يُؤَدِّيَ يَميناً على إطَاعَةِ أَيَّةِ حُكُومَةٍ، وأنْ يُحافِظَ على حُرِّيَّةِ عَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ)

٥ ـــ وألاَّ يُقاوِمَ الشَّرَّ بالعُنْفِ

وَلِهَذا فتولستويُ يعتَقِدُ أنَّ الكَنِيسَةَ بِعقِيدَتِهَا بَعِيدَةٌ كُلَّ البُعْدِ عَنْ رُوحِ المسيحِيَّةِ الصَحِيحَةِ.

وليسَ عجِيباً بعْدَ حَمْلَةِ تولستويَ على الكَنِيسَةِ

الرُّوسيَّةِ وتَفْنِيدِ تَعَالِيمِهَا **أنْ تُناصِبَهُ الكَنِيسَةُ العَداوَة**، وتَعُدَّهُ خارِجاً عَلَيْهَا، تُوصِيَ الكَهَنَةَ في مَنْشُور سِرِّيٍّ ألاّ تُقَامَ لَهُ في حَالَةِ مَوْتِهِ المَرَاسِيمُ الدِّينِيَّةُ المُعتادَةُ!

أمّا تولستويْ فكانَ يُؤمِنُ بأَنَّ روسية ستُدْرِكُ يَوْماً، وَمَعَهَا العَالَمُ كُلُّهُ، أَنَّهُ قَدْ أدّى إلى أبْناء المسيحِيَّةِ أَكْبَرَ صَنِيعٍ بأنْ أرَاهُمُ المسيحيَّةَ كَمَا أرادَهَا المسيحُ، لا كَمَا زَيَّفَتْهَا الكنيسةُ!

— ٢ —

وَعِنْدَمَا اغْتِيلَ القَيْصَرُ الاسكندرُ الثَّانِي في عامِ ١٨٨١ عَزم ابْنُهُ وخَلِيفَتُهُ الإسكندَرُ الثَّالِثُ على تَنْفِيذِ حُكْمِ الإِعدَامِ في قَتَلَةِ أبِيهِ، وبَيْنَهُمْ امْرَأةٌ، فَهَبَّ تولستويْ إلى اتِّخاذِ مَوْقِف مُسْتَمد مِنْ فَهْمِهِ لِتَعَالِيمِ المَسِيحِ، بِعَدَمِ مُقَابَلَةِ الشَّرِّ بالشَّرِّ، والتَّخَلِّي عَنِ العُنْفِ، فَوَجَّهَ كِتَاباً إلى القَيْصَرِ الشَّابِّ، عَنْ طَرِيقِ رَئِيسِ المَجْمَعِ المُقَدَّسِ، يَسْأَلُهُ فِيهِ أَنْ يَعْفُوَ وَيَصْفَحَ، ويُقَابِلَ الشَّرَّ بالخَيْرِ. وَكَانَ مِمَّا كَتَبَ فِي خِطَابِهِ:

« إِنَّكَ يا مَوْلايَ، لَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ، ودَعَوْتَ أولئكَ الرِجالَ، وزَوَّدْتَهُمْ بالمَالِ، وأَرْسَلْتَهُمْ إلى بِلادٍ

بَعِيدَةٍ مِثْلِ أمريكا، ثُمَّ أَذَعْتَ بَيَاناً تَبْدَؤهُ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ: إنِّي أَقُولُ لكُمْ أَحِبُّوا أعْدَاءكُمْ، فإنِّي لا أَعْلَمُ تأثِيرَ ذلِكَ لَدَى الآخرينَ، ولكنِّي أنَا، على قِلَّةِ شَأنِي، سأَصِيرُ كَلْبَكَ وأَغْدُو عَبْدَكَ! ذلِكَ العَمَلُ مِنْكَ يَقْضِي عَلَى جَمِيعِ الشُّرُورِ التي تتَأَلَّمُ مِنْهَا روسية، وَلَسَوْفَ تَذُوبُ الثَّوْرَاتُ كَمَا يَذُوبُ الشَّمْعُ في النَّارِ أمَامَ القَيْصَرِ الذي يَقْضِي بِشَرِيعَةِ المَسِيحِ!» **رسالَةٌ شُجَاعَةٌ وَصَرِيحَةٌ،** ولكِنَّ رئِيسَ المَجْمَعِ المُقَدَّسِ احتَفَظَ بِهَا ولمْ يَرْفَعْهَا إلى القَيْصَرِ، إلى أنْ تَمَّ إعْدامُ المُتآمِرِينَ، فأَعَادَهَا إلى تُولستويَ، مُتَعَلِّلاً بالظُّرُوفِ القَاسِيَةِ التي أذْهَلَتْهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُؤونِهِ، وَمُشِيراً إلى أنَّ عَقِيدَةَ تُولستويَ شيء وعَقِيدَتَهُ هُوَ وَعقيدَةَ الكَنِيسَةِ شيء آخرُ! ويُقَالُ إنَّ القَيْصَرَ عَلِمَ بالرِّسَالَةِ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ، فأبْلَغَ

تولستويَ أنّهُ كان يغتفِرُ الاعتداء لوْ وقع عليْهِ، ولكِنّهُ وَقَعَ على أبيهِ فَلا يَسْتَطِيعُ ولا يملكُ أنْ يعْفُو عنِ المُعْتَدِينَ.

غَيْرَ أنَّ الرِّسالَةَ المُوَجَّهَةَ إلى القَيْصَرِ دَلِيلٌ على أنَّ تولستويَ غَدا **مُفَكِّراً حُرّاً ومُصْلِحاً ذَا رِسَالَةٍ**، ولَوْلا مكانَتُهُ الأَدَبِيَّةُ العَظِيمَةُ فِي روسية يَوْمَذاكَ لَنالَهُ مِنَ عَسْفِ القَيْصَرِ وَحُكُومَتِهِ، لِمَوْقِفِهِ مِنَ الجُنَاةِ الثَّائرِينَ، مَا نَالَ غَيْرَهُ مِنْ أَلْوَانِ الأَذَى والنَّفْيِ والسَّجْنِ والتَّشْرِيدِ.

وَفِي شِتاءِ هذِهِ السَّنَةِ نَفْسِهَا (١٨٨١) **رَحَلَ تولستويُ وأسْرَتُهُ جَمِيعاً عَنْ ضَيْعَتِهِمْ إلى موسكو، لِيَلْتَحِقَ أكْبرُ أوْلادِهِ سيرجي بالجَامِعَةِ**، وَلِتُتاحَ لِتَانيا البيئةُ لإِكْمَالِ تَرْبِيَتِهَا، واتَّخَذَتِ الأُسْرَةُ لِسُكْنَاهَا مَنْزِلاً كبيراً، وَخَصَّصَتْ للفَيْلَسُوفِ غُرْفَةً

واسِعَةً، لكنَّهُ لا يَجِدُ فِيهَا الهُدُوءَ النَّفْسِيَّ الذي كانَ يَجِدُهُ في قَصْرِهِ الرِّيفيِّ، ولِهَذا نَجِدُهُ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ يَنْسَلُّ مِنَ البَيْتِ، مُرْتَدِياً مَلابِسَهُ البَسِيطَةَ، لِيَسِيرَ طَوِيلاً في التِّلالِ والغَابَاتِ المُحِيطَةِ بالمَدِينَةِ، ويُخَالِطَ العُمَّالَ، ويَتَحَدَّثَ إلى العَامَّةِ، **وَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنَا تولستويَ عَلى مَظَاهِرِ البُؤْسِ والشَّقاءِ في المَدِينَةِ الكَبيرَةِ**: جَماعَاتٌ مِنَ العُمَّالِ العَاطِلِينَ يَبْحَثُونَ دُونَ جَدْوى عَنْ عَمَلٍ، وَحُشُودٌ مِنْ ذَوي الأَسْمَالِ البَالِيَةِ، مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والأَطْفَالِ الشَّحَاذِينَ، يَسْتَجْدُونَ المَارَّةَ فِي الشَّوَارِعِ، والجُوعُ والبَرْدُ القارِصُ يَفْتِكَانِ بِهِمْ.

وَكَانَتْ هذِهِ المَنَاظِرُ البَائِسَةُ تَحُزُّ فِي قَلْبِ تولستويَ، وَتَدْفَعُهُ إلى إطَالَةِ التَّفْكِيرِ في حَالِ هَؤُلاءِ البَائِسِينَ، لاسْتِجْلاءِ سِرِّ شَقَائِهِمْ وَمَعْرِفَةِ السَّبِيلِ إلى القَضَاءِ

عَلَيْهِ، وَقَدْ أَعْلَنَ فِي كِتَابِهِ (ماذا عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ إِذَنْ؟) أَنَّ تَعَاسَةَ أولئكَ الفُقَرَاء الجَائِعِينَ سَبَبُهَا فِي رَأيِهِ حُصُولُ الأَغْنِيَاء المُتْرَفِينَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ والمَتَاعِ، فَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّنِي عِنْدَمَا أرَى الآلافَ مِنْ بَنِي الإِنْسَانِ فِي مَخَالِبِ الجُوعِ والبَرْدِ والانحِطَاطِ أَفْهَمُ، لا بِعَقْلٍ ولا بِقَلْبٍ، بَلْ بِمَجْمُوعِ مَا فِيَّ مِنْ حَيَاةٍ، إِذْ أَنَا وآلاف مِنْ أَمْثَالِي يأكُلُونَ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِمْ مِنْ طَرِيِّ اللحْمِ والسَّمَكِ، ويُغَطُّونَ دُوْرَهُمْ بالأَقْمِشَةِ والسَّجَّادِ، وَمَهْمَا يَقُلْ عُلَمَاء العَالَم بِضَرُورَةِ ذلِكَ فَإِنَّ وُجُودَ الآلافِ مِنَ الجَائِعِينَ في موسكو هُوَ جَرِيمَةٌ تُرْتَكَبُ، لا مرَّة واحِدَة بَلْ باسْتِمْرارٍ، وإِنَّنِي بِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ تَرَف لا أَحْتَمِلُ هذِهِ الجَرِيمَةَ فَحَسْبُ، بَلْ أَشْتَرِكُ فِيهَا!»

وَعِنْدَمَا عَزَمَتِ الحُكُومَةُ على **القِيَامِ بتَعْدَادِ السُّكَّانِ، تَطَوَّعَ تولستويُ للعَمَل في سمولنسك وهُوَ أفْقَرُ أحْيَاء المَدِينَةِ،** لِيَرَى كَيْفَ يَعِيشُ البائسُونَ مِنْ سُكَّانِ هذَا الحَيِّ، وَهُنَا لَمَسَ بيَدَيْهِ ألْوَاناً مِنَ الشَّقَاء والتَّعَاسَةِ لَمْ يَكُنْ يَعرفُهَا مِنْ قَبْلُ، وأدْرَكَ أنَّ الحَالَةَ الاجتِمَاعِيَّةَ كُلَّهَا يَنْبَغِي أنْ تَتَغَيَّرَ، وأنَّ الإحْسَانَ لَيْسَ هُوَ الوَسِيلَةَ المُثْلَى لمُسَاعَدَةِ الفُقَرَاء المَحْرُومِينَ، بَلِ الوَسِيلَةُ لِذَلِكَ أنْ نُعَلِّمَهُمُ العَمَلَ وَنُمَهِّدَ لَهُمُ السَّبِيلَ إلَيْهِ، كَمَا أدْرَكَ **أنَّ المَالَ هُوَ أسَاسُ الشَّرِّ كُلِّهِ،** مَهْمَا حاوَلَ الاقتِصَاديُّونَ تَسْوِيغَ التَّمَلُّكِ! فامتِلاكُ المَالِ هُوَ أصْلُ البَلاء وَمَنْبَعُ الشَّرِّ!

وفي شبَاط ١٨٨٢ كَتَبَتْ زَوْجَتُهُ في مُذَكَّراتِهَا: «إنَّ كُلَّ شَيء في موسكو عَظِيمٌ، لَوْلا أنَّ زَوْجي

يَكْرَهُ حَياةَ المُدُنِ وَيقُولُ إنّهَا مَلِيئةٌ بالرَّفَاهِيَةِ والَلّهْوِ والكَسَلِ!».

وَبَدَأَ الخِلافُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ يَظْهَرُ لِلْعِيَانِ، وَقَدْ سَجَّلَتِ الكونتسُ في مُذكَراتِهَا بِتَارِيخِ ٢٥ آب ١٨٨٢ ما يَلِي: «مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً ماضِيَةً، كُنْتُ شابَّةً وكُنْتُ سَعِيدَة، وكانَتْ مُذكَراتِي تَفِيضُ بالحُبّ لِزَوْجِي، أمّا الآنَ فإنِّي أَجْلِسُ مَهْمُومَةً، أقْضِي اللَّيْلَ وَحْدِي.. لَقَدْ هَجَرَنِي زَوْجِي إلى غُرْفَةِ مَكْتَبِهِ، وَأَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ عَلى أَصْغَرِ المَسَائِلِ وأَتْفَهِهَا، وَقَدْ فَتَرَتْ عَلاقَتُهُ بِي، وقَالَ لِيَ اليَوْمَ: إنَّهُ يَوَدُّ مِنْ كُلِّ قَلْبِهِ أنْ يَتْرُكَنَا، وَلَنْ أَنْسَى هذِهِ الكَلِمَاتِ فَقَدْ مَزَّقَتْ قَلْبِي!».

والحَقُّ أنَّ نَظْرَةَ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إلى الحَيَاةِ أَصْبَحَتْ مُخَالِفَةً كُلَّ المُخَالَفَةِ

للأخرى، فقد كان تولستوي يَجِدُ في طَريقِهِ إلى تَطْهِيرِ نَفْسِهِ والسُّمُوِّ بِرُوحِهِ، وَقَدْ أَصْبَحَ يَرْتَدِي ثِيابَ الفلاحين الخَشِنَةَ، وينتعل حِذاء مِنْ أحذيتهم، ويُكْثِرُ مِنْ مُخالَطَةِ الفُقَراءِ، وَقَدْ حَكَمَ مَنْ كانَ يَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَصْحابِهِ بِأَنَّهُ قَدْ تَطَوَّرَ وأَصْبَحَ إِنْسَاناً جَدِيداً، فَهُوَ رَقِيقٌ بَسِيطٌ طَيِّبٌ، حَكِيمٌ فِي تَصَرُّفَاتِهِ، لا يُحاوِلُ أَنْ يَنْقُضَ رَأْيَهُ أَوْ يَضْغَطَ على مُحَدِّثِهِ لإِقْنَاعِهِ بِصَوابِ أَفْكارِهِ! لَقَدْ أَصْبَحَ يُصْغِي بِوداعَةٍ إلى اعتِراضاتِ تورجنيف سنيه هادِئاً باسِماً! إنَّهُ ليس بالكونت تولستوي الَّذي عَرَفْناهُ في شَبابِهِ أبداً. فَهُوَ قَدْ وُلِدَ وِلادَةً جَدِيدَةً. بِإِيمانٍ جَدِيدٍ، وَقَلْبٍ جَدِيدٍ، وَمَحَبَّةٍ جَدِيدَةٍ! هَذا ما كَتَبَهُ بولونيسكي عِنْدَما رآهُ بَعْدَ تَطَوُّرِهِ الكَبِيرِ

أَمّا الكونتس تولستوي فَكانَ يُحْزِنُها وَيُؤْلِمُها مَا

آلَ إلَيْهِ حالُ زَوْجِهَا، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ اللَّوْمِ والعِتَابِ لَهُ، **وَلَمْ تكُنْ قَادِرَة على إدْرَاكِ ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِ زَوْجِهَا مِنْ صِراعٍ رُوحِيٍّ عَمِيقٍ، وَعَذَابٍ وَشَقَاءٍ**، وَقَدْ **كانَ مَرَدُّ شَقَائِهِ إلى ثَلاثَةِ أَسْبَابٍ:**

أَوَّلُهَا أَنَّهُ مَهْمَا أَكْثَرَ مِنْ مُخَالَطَةِ الفُقَرَاءِ وَالفَلاّحِينَ، فَهُوَ لا يُحِسُّ إحْسَاساً كَامِلاً أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، **وَثَانِيهِمَا** أَنَّهُ وهُوَ الَّذِي يُؤمِنُ بِأَنَّ المَالَ هو أَسَاسُ الشَّرِّ، ما يَزالُ واحِداً مِنْ كِبَارِ المَالِكِينَ، فَأَيُّ تَنَاقُضٍ كَبِيرٍ بَيْنَ أَقْوَالِهِ وَحَقِيقَةِ وَضْعِهِ، **وَثَالِثُهمَا** مَوْقِفُ الحُكُومَةِ والكَنِيسةِ مِنْ كُتُبِهِ وَآرَائِهِ الدِّينِيَّةِ والإِصْلاحِيَّةِ.

لَقَدْ كانَ أَعْدَاؤُهُ يُشَنِّعُونَ عَلَيْهِ هَازِئِينَ، وَيُهَاجِمُونَ آرَاءَهُ وأفْكَارَهُ الجَدِيدَةَ ويَتَّهِمُونَهُ بالنِّفَاقِ، وَقَدْ أَحْزَنَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَلْبَ صَدِيقِهِ **تورجنيف** عَلَيْهِ،

فكتَبَ إلَيْهِ مِنْ فِراشِ موْتِهِ في تمّوز ١٨٨٣ رِسالةً يرْجوهُ فِيهَا أنْ يَعودَ إلى رِحابِ الفنِّ، وناداهُ بقوْلِهِ:

«**يا شاعِرَنَا العَظِيمَ**، يا لِسانَ هٰذِهِ الأرْضِ، أرْضِنَا الرُّوسيَّةِ، **عُدْ إلى الأدَبِ، فهُوَ موْهِبَتُكَ الحَقِيقيَّةُ**، اسْمَعْ توَسُّلَ رَجُلٍ يمُوتُ!».

ولكِنَّ تولستويَ لا يَعودُ إلى الأدَبِ إلاّ بعْدَ أنْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بالإيمَانِ، ويَتخلّصَ مِنْ أزْمتِهِ الرُّوحيَّةِ وَعذَابِهِ النَّفْسِيِّ، وَيَجِدَ للحَيَاةِ التي يحْياها معْنًى يَرْضَاهُ، وَتَفْسِيراً تَسْتَرِيحُ إلَيْهِ نَفْسُهُ القَلِقَةُ.

وَقَدْ حَاوَلَ تولستويُ أنْ يَتَنَازَلَ عَنْ أمْلاكِهِ، تَنْفِيذاً لِمَبَادِئِهِ، ولكِنَّ زَوْجَتَهُ أثَارَتِ الأُسْرَةَ كُلَّهَا عَلَيْهِ، وَنَشِبَ نِزَاعٌ عَائِليٌّ كَبِيرٌ، وَأرادَتِ الكونتِسُ أنْ تَطْلُبَ مِنَ المحْكَمَةِ وَضْعَ أمْلاكِ زَوْجِهَا تَحْتَ الحِرَاسَةِ، وَهَدَّدَتْهُ مَرَّاتٍ بالانْتِحَارِ، وَظَلَّتْ تُلاحِقُهُ

بشكايَتِهَا وَبُكَائِهَا، وَعِنْدَمَا يَئِسَ مِنْ إقْنَاعِهَا، تَرَكَ لَهَا الثَّراء، لِيَحْيَا هُوَ حَيَاةَ الفُقَرَاء، فَجعَلَ لَهَا الوَلايَةَ على ما يَمْلِكُ، والإفَادَةَ مِنْ إيْرَادَاتِ مُؤلَّفَاتِهِ الصَّادِرَةِ حَتَّى عامِ ١٨٨١.

وَهكَذا أصْبَحَ الفَيْلَسُوفُ يَعيشُ عِيشَةَ الزُّهَادِ، بَعْدَ أَنْ تَخَلَّى عَنْ ثَرْوَتِهِ لِزَوْجَتِهِ، فَحَرَّمَ علَى نَفْسِهِ أكْلَ اللَّحْمِ رَحْمَةً بالحيوانِ، كَمَا حَرَّمَ الصَّيْدَ والخَمْرَةَ والتَّدْخِينَ، وانْصَرَفَ إلى العَمَلِ بيَدَيْهِ، يَزْرَعُ حِيناً، وَيعْمَلُ في صُنْعِ أحْذِيَتِهِ حِيناً، ويُكْثِرُ مِنْ مُخَالَطَةِ الفُقَرَاء والمَسَاكِينِ.

ـ ٣ ـ

في عَامِ ١٨٨٦ **عادَ تولستويُ إلى فَنِّهِ القَصَصِيِّ**، لِيَتَّخِذَ مِنْهُ وَسِيلَةً لإِذَاعَةِ آرائِهِ وأَفْكَارِهِ، وَقَدْ أَصْبَحَ للفَنِّ عِنْدَهُ رِسَالَةٌ يُؤَدِّيهَا، وَهِيَ خِدْمَةُ النَّاسِ، ويَبْدُو أنَّ ضِيقَهُ بتَعَسُّفِ الرَّقَابَةِ عَلى مُؤَلَّفَاتِهِ الفِكْرِيَّةِ وَمَنْعِ نَشْرِهَا هُوَ الذي دَفَعَهُ إلى العَوْدَةِ إلى الفَنِّ، **بِنَشْرِ قِصَّتِهِ (مَوْتِ إيفان إليتش)** التي كَتَبَهَا فِي ذَلِكَ العَامِ، واسْتَبْشَرَ النَّاسُ فِي روسيةَ وأوربةَ بِعَوْدَةِ الفَنَّانِ العَبْقَرِيِّ إلى مَجَالِ إبْدَاعِهِ الأَكْبَرِ، وَقَدْ **كَتَبَ بَعْدَ ذلِكَ مَسْرَحِيَّةً وَعِدَّةَ قصَصٍ، مِنْ أَهَمِّهَا (أنْشُودَةُ كروتزر)** **وَهِيَ قِصَّةُ الزَّوْجَةِ الخَائنَةِ**، وَقَدْ أَثَارَتْ كَثِيراً مِنَ الصَّخَبِ واللَّغَطِ، لِتَصْوِيرِ العَلاقَةِ الجِنْسِيَّةِ فِيهَا

صُورَة حيَوانِيَّةً لَيْسَ الحُبُّ إلاّ طِلاء يُخْفِيهَا، **وكانَ لِلقِصَّةِ وَقْعٌ سَيِّء في نَفْسِ زَوْجَتِهِ، لأَنَّ النَّاسَ أَصْبَحُوا يَرْبِطُونَ بَيْنَ القِصَّةِ وَحَيَاتِها الزَّوْجِيَّةِ،** فَرَاحَتْ تَقْسُو على زَوْجِهَا، ثُمَّ خَطَرَ لَهَا عِنْدَمَا مَنَعَ الرَّقِيبُ نَشْرَ القِصَّةِ، لاحْتِجَاجِ الكَنِيسَةِ عَلَيْهَا، أَنْ تَتَوَسَّلَ إلى القَيْصَرِ لِيَسْمَحَ بِنَشْرِهَا، فإذَا عَلِم النَّاسُ دَوْرَهَا فِي السَّعْيِ إلى نَشْرِهَا لَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّهَا المَقْصُودَةُ بِمَا كَتَبَ زَوْجُهَا!

وَأَذِنَ القَيْصَرُ للكونتس تولستوي، فَلَمَّا مَثُلَتْ بَينَ يَدَيْهِ لَقِيَهَا بِكَثِيرٍ مِنَ العَطْفِ، وبَارَكَ عَوْدَةَ زَوْجِهَا إلى الفَنِّ، وَوَعَدَهَا بِالمُوَافَقَةِ عَلى طَبْعِ القِصَّةِ الأَخِيرَةِ في مُجَلَّدِ أعْمَالِهِ الكَامِلَةِ.

أمّا زَوْجُهَا فَلَمْ يَرْضَ عَمَّا فَعَلَتْ، كَمَا كَانَ لا يَرْضَى عَنْ كَثِيرٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِهَا، وَلكِنَّهَا كانَتْ عَنِيدَة

فِي عَمْدِهَا إلى كُلِّ مَا يُضايِقُهُ، وَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنْ أَخَذَ بَعْضُ الفُقَرَاءِ خَشَباً مِنْ غَابَاتِ الكونْتِ، فَقَدَّمَتْهُمْ إلى المُحَاكَمَةِ، وَلَمَّا بَلَغَهُ نَبأُ سَجْنِهِمْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنامَ اللَّيْلَ! **واشْتَدَّ النِّزَاعُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ** عامَ ١٨٩١ حِينَ أَرَادَتِ الكونتسُ أَنْ تَقْسِمَ ثَرْوَةَ زَوْجِهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوْلادِهَا، وَكَانَ تولستويُ يُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَنَازَلُوا عَنِ الثَّرْوَةِ للفَلاَّحِينَ، ولكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لإرادَتِهِ، وَقُسِّمَتِ الثَّرْوَةُ، وَرَفَضَتِ ابنَتَاهُ ماري وتانيا أَنْ تَأْخُذَا نَصِيبَيْهِمَا، استِجَابَةً لأَبيهِمَا، وَكَانَتَا تُحِبَّانِهِ وَتُؤثِرَانِهِ بِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِمَا بِهِ، فَسُرَّ الأَبُ وَغَضِبَتِ الأُمُّ لِمَوْقِفِهِمَا.

وَفِي هَذَا العَامِ **وَقَعَتِ المَجَاعَةُ فِي روسيَة** واستَمَرَّتْ مُدَّةَ سَنَتَيْنِ، وَقَدْ بَذَلَ تولستويُّ كُلَّ جُهُودِهِ لِتَقْدِيمِ العَوْنِ إلى الجَائِعِينَ، وَكَتَبَ يُطَالِبُ

بإنْصَافِهِمْ وينَدِّدْ بالحُكُومَةِ، وَيَجْمَعُ المَالَ والرِّجالَ، **وَقَدْ جَنَّدَ أوْلادَهُ وَبَنَاتِهِ وَزَوْجَتَهُ لِتَخْفِيفِ الكَارِثَةِ عَلى النَّاسِ،** مِنَ الجَوْعَى والمَرْضَى، وَأَقَامَ هُوَ نَفْسُهُ فِي الأَقَالِيمِ الجَائِعَةِ، وَكَانَ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنَ العَدْلِ أَنْ نَدَّعِيَ أَنَّنَا نَحْنُ الذِينَ نُطْعِمُ هَؤلاءِ الجِيَاعَ، لأَنَّهُمْ هُمْ فِي الحَقِيقَةِ الذِينَ يُطْعِمُونَنَا!» وَقَدِ احْتَمَلَ خِلالَ هَاتَيْنِ السَّنَتَيْنِ آلاماً حَتَّى كَادَ يَفْقِدُ ذَاكِرَتَهُ مِنَ التَّعَبِ.

وَكَانَ يَقْضِي نَهَارَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْ حَوْلِهِ الكوليرا والجُدَرِيُّ والتيفوسُ والأَمْرَاضُ الأُخْرَى، لا يَخَافُ العَدْوَى وَلا يَشْكُو الكلالَ، كَمَا كانَ **يَقْضِي لَيْلَهُ فِي كِتَابَةِ المَقَالاتِ لِلصُّحُفِ،** يَحُضُّ فِيهَا القَادِرِينَ عَلَى الجُودِ والعَمَلِ، وَيُنَدِّدُ بالأَغْنِيَاء الذِينَ لا يَمُدُّونَ يَدَ العَوْنِ والنَّجْدَةِ لِلْجَائِعِينَ،

وانْهَالَتْ عَلَيْهِ التَّبَرُّعَاتُ مِنْ روسيةَ وانكلترة والولاياتِ المتَّحِدَةِ، فَأَنْشَأَ أَعْدَاداً كبيرَةً مِنَ المَطَاعِمِ لِتَغْذِيَةِ الجَائِعِينَ، وَأَحَبَّهُ النَّاسُ، وَلكِنَّ خُصُومَهُ ازْدَادُوا كَيْداً لَهُ، وَأَشَاعُوا عَنْهُ أَنَّهُ داعِيَةٌ خَطِيرٌ مِنْ دُعَاةِ الثَّوْرَةِ، وَدافَعَتِ ابْنَةُ العَمِّ (ألكسندرا تولستويَ) عَنْهُ أَمَامَ القَيْصَرِ، وَوَصَفَتْهُ بِقَوْلِهَا: «عَبْقَرِيُّ روسيةَ الأَكْبَرُ» وَأَجَابَهَا القَيْصَرُ بِأَنَّهُ لَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ شَهِيداً، فَيَكْسَبَ بِذَلِكَ اسْتِنْكَارَ العَالَمِ المُتَمَدِّنِ!

الحقُّ أَنَّ تُولستويَ لَمْ يَكُنْ يَوْماً مِنْ دُعَاةِ الثَّوْرَةِ وَالدِّمَاءِ وَمُقَاوَمَةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، وَهُوَ القَائِلُ: «نَحْنُ حقيقةً فِي حَاجَةٍ إِلَى ثَوْرَةٍ، وَلكِنَّهَا لَيْسَتْ ثَوْرَةً دَمَوِيَّةً، بَلْ ثَوْرَة فِي ضَمَائِرِ الأَغْنِيَاءِ وَفِي قُلُوبِهِمْ!» فَهُوَ دَاعِيَةُ الإِخَاءِ وَالحُبِّ وَالإِيمَانِ وَالتَّعَاطُفِ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَدَمِ مُقَاوَمَةِ العُنْفِ

بالعُنْفِ، غَيْرَ أَنَّ تُولستويَ بِمَبادِئِهِ التي أَذاعَهَا بَيْنَ النَّاسِ كانَ أَوَّلَ مَنْ تَحدَّى القَيْصَرِيَّةَ وَهِيَ فِي عُنْفُوَانِ قُوَّتِها، وَتَحَدَّى الكَنِيسَةَ في أَوْجِ سُلْطَانِهَا، وَبَثَّ الشَّجَاعَةَ في قُلُوبِ النَّاسِ، فَكَانَ بِكُلِّ ذلِكَ مُمَهِّداً للثَّوْرَةِ الاشتِرَاكِيَّةِ القَادِمَةِ في روسيةَ، وَيَقُولُ البَاحِثُونَ فِي سِيرَةِ حَيَاتِهِ وَمَبَادِئِهِ بِحَقٍّ «لَئِنْ كانَ جَان جاكْ رُوسو أَباً للثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ فَإِنَّ ليونَ تولستويَ أَبٌ للثَّوْرَةِ الرُّوسِيَّةِ العالَمِيَّةِ»، وَقَدْ تَأَثَّرَ بِمَبَادِئِهِ وَكِفَاحِهِ البُطُولِيِّ الطَّوِيلِ فِي سَبِيلِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ مُصْلِحِي العَالَمِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ غَانْدِي مُحرِّرُ الهِنْدِ العَظِيمُ، وَقَدْ كانَ تولستويُ أَسْتَاذَهُ فِي الدَّعْوَةِ إلى النضالِ السِّلْمِيِّ دُونمَا عُنْف، على نَحْوِ ما بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِنَا عَنْ (غَانْدِي) فِي هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ مِنَ الأَعْلامِ المبرِّزين.

— ٤ —

وفي عامِ ١٨٩٥ بَدأ تُولستويُ كِتَابَةَ رائِعَتِهِ الفَنِّيَّةِ الثَّالِثَةِ (البَعْثُ) وَنَشَرَهَا في عامِ ١٨٩٩ وسُرْعَانَ ما تُرجِمَتْ إلى اللغاتِ الأوربيَّةِ، وَذَهَبَ لَهَا صِيتٌ عَظِيمٌ، وَتَقُومُ فِكْرَةُ القِصَّةِ عَلَى أنَّ الرَّجُلَ الآثِمَ إذا تَخَلَّى عَنِ الفَتَاةِ التي أَغْوَاهَا يَكُونُ هُوَ المَسْؤولَ عَمَّا تَنْحَدِرُ إلَيْهِ ضَحِيَّتُهُ مِنَ السُّقُوطِ والرَّذِيلَةِ، وَقَدْ كانَتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ تُرهِقُ ضَمِيرَ تولستويَ، لِمَا كانَ مِنْهُ فِي شَبَابِهِ مِنْ إغْوَائِهِ إحْدَى الخَادِمَاتِ، ومَا انْتَهَتْ إلَيْهِ بَعْدَ طَرْدِهَا مِنِ انْغِمَاسٍ فِي الرَّذِيلَةِ والإِثْمِ!

وَيَرَى الباحِثُونَ أنَّ (البَعْثَ) دُونَ رائِعَتَي

تولستويَ الخَالِدَتَيْنِ (الحربُ والسَّلامُ) و(أنّا كارنينا) ولكنَّهُمْ يُؤكِّدُونَ بِأَنَّ فِيهَا مَواقِفَ لا تَقِلُّ فِي رَوْعَتِهَا وَجَمَالِهَا عَنِ الرِّوَايَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: فَفِيهَا صُوَرٌ بَهِيجَةٌ مِنْ حَيَاةِ تولستويَ، أيّامَ الهَوَى والشَّبَابِ، وَفِيهَا وَصْفٌ لِصِرَاعِهِ النَّفْسِيِّ العَنِيفِ بَيْنَ مَطَالِبِ جِسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ، وَنَوَازِعِ رُوحِهِ إِلى السُّمُوِّ وَالتَّطَهُّرِ، وَفِي الرِّوَايَةِ كَثِيرٌ مِنْ آرائِهِ الإِصْلاحِيَّةِ وَفَلْسَفَتِهِ فِي المَرْحَلَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ، مِنَ الدَّعْوَةِ إِلى الحُبِّ فِي العَلاقَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَالحَمْلَةِ عَلى الكَنِيسَةِ والسخْرِيَةِ مِنْ بَعْضِ طُقُوسِهَا وَشَعَائِرِهَا.

وَعِنْدَمَا أَهَلَّ القَرْنُ العِشرونَ عَلى الدُّنيا كانَ تولستويُ شَيْخاً فِي الثانيةِ والسَّبعينَ، وَقَدْ تمكَّنَ أَنْ يَصِلَ إِلى أَوْجِ مَجْدِهِ الأَدبِيِّ، وَيُصْبِحَ أَعْظَمَ

كُتّابِ القِصَّةِ في القَرْنِ التَّاسِعَ عشَرَ؛ وَتَعُمُّ شُهْرَتُهُ آفاقَ الدُّنيَا، فَيَتَهافَتُ عَلى ضَيْعَتِهِ الزُّوَّارُ مِنْ أَقَاصِي العَالَمِ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ البَرِيدُ آلافَ الرَّسَائِلِ مِنْ قُرّائِهِ والمُعْجَبِينَ بِفَنِّهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ وَأَفْكَارِهِ وَمَبَادِئِهِ، وَقَدْ ظَلَّ فِي بِدَايَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ يُتَابِعُ كِتَابَةَ القِصَصِ، وَيُثْبِتُ بِهَا **«أَنَّ الأَسَدَ الهَرِمَ مَا تَزَالُ لَهُ قُوَّةُ مَخَالِبِهِ!»**.

وَخِلالَ السَنَوَاتِ العَشْرِ التي عَاشَهَا تولستويُ مِنْ هَذَا القَرْنِ، ظَلَّ عَبْقَرِيُّ روسية العَظِيمُ يَتَحدَّى السُّلُطَاتِ، وَيُرَحِّبُ بالأَذَى الذي يَأتِيهِ من الكنِيسَةِ والدَّوْلَةِ، في صَبْرٍ واحْتِمَال، وَفِي أيّارَ ١٩٠٤ **أَعْلَنَ سُخْطَهُ على الحَرْبِ الرُّوسِيَّةِ اليابَانِيَّةِ، وَلَمْ يُقِرَّ ثَوْراتِ ١٩٠٥ لأَنَّها كانَتْ قائِمَةً على العُنْفِ، وظَلَّ الشِّقَاقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ على أَشَدِّهِ،**

وكانَ أكبَرَ مَصْدَرٍ لآلامِهِ فِي السَّنَواتِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ.

وَفي عِيدِ مِيلادِهِ الثَّمانِينَ (عامَ ١٩٠٨) تَقَاطَرَ النَّاسُ عَلَى ضَيْعَتِهِ فِي وُفُودٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَنْصَارِهِ وَمُرِيدِيهِ، للاحتِفَالِ بِعِيدِهِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وُفُودٌ مِنَ الدُّوَلِ الأَوْرُبيَّةِ وَمِنْ أمريكا والهندِ واليابانِ! **لَقَدْ أَصْبَحَ تولستويُ (رَجُلَ العَالَمِ)** وَتَلَقَّى فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَي بَرْقِيَّةٍ مِنْ روسيةَ وَبَاقِي أَنْحَاء الدُّنْيَا، وَصَدَرَتِ الصُّحُفُ عَلَى اخْتِلافِ نَزَعَاتِهَا بِصُوَرِهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاء عَلَى عَبْقَرِيَّتِهِ وَمُؤَلَّفَاتِهِ وَجِهَادِهِ!

لَقَد أَحَاطَ النَّاسُ **(نَبِيَّ العَصْرِ)** كَمَا سَمَّوْهُ بِبَالِغِ الحُبِّ والتَّقْدِيرِ، وَلكِنَّ الرَّجُلَ العَجُوزَ لَمْ يَجِدِ الرَّاحَةَ والسَّعَادَةَ فِي بَيْتِهِ، وَكانَ يَحْمِلُ نَفْسَهُ عَلى

الصَّبْرِ، ولكِنَّهُ في عَامِ ١٩١٠ أصبَحَ بَيْتُهُ جَحِيماً، لِمَا كَانَ يَلْقى فيهِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ مِنَ العَذَابِ، فَقَرَّرَ أنْ يَضَعَ حَدّاً لِشَقَائِهِ بِالفِرارِ..

وَكانَ فِرارُهُ في جُنْحِ اللَّيْلِ نِهَايَةً لِمَأسَاةِ حَيَاتِهِ الطَّوِيلَةِ.

خَاتِمَةُ المَطَافِ

تولستويُ فَنَّان عَبْقَرِيٌّ ذُوْ رِسَالَةٍ

كَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الكونتس تولستويَ وَزَوْجِهَا مَصْدَرَ شَقَاءِ الفَيْلَسُوفِ العَبْقَرِيِّ فِي سِنِيِّ حَيَاتِهِ الأَخِيرَةِ: بَعْدَ تَوْزِيعِ ثَرْوَتِهِ عَلَى أَوْلادِهِ أَصْبَحَ تولستويْ فَقِيراً زَاهِداً رَاضِياً بالكَفَافِ وَخُشُونَةِ العَيْشِ. وَلكِنَّ الأَرْبَاحَ المُتَزَايِدَةَ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ كَانَتْ تَدُرُّ عَلَيْهِ مَبَالِغَ وَفِيرَةً. وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ تُجَاهِدُ لِكَي تَحْتَفِظَ بِحُقُوقِ الأُسْرَةِ فِيهَا. دُونَ تَحْقِيقِ رَغْبَةِ زَوْجِهَا فِي التَّنَازُلِ عَنْ تِلْكَ الحُقُوقِ للأُمَّةِ. وَكَانَتْ بَعْضُ بَنَاتِهِ وَالمُتَعَصِّبِينَ لِمَبَادِئِهِ مِنْ تَلامِيذِهِ إِلى

جَانِبِهِ فِي صِرَاعِهِ مَعَ زَوْجَتِهِ، وَأَرَادَ تولستويُ أنْ يكْتُبَ ذَلِكَ فِي وَصيَّتِهِ، فَثَارَتْ ثَائِرَةُ الزَّوْجَةِ، وَأَقَامَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، مِمَّا اضْطَرَّهُ إلى تَحْرِيرِ وَصِيَّتِهِ سِرّاً، فِي غَفْلَةٍ مِنْ مُرَاقَبَةِ الزَّوْجَةِ لَهُ، وَقَدْ آلَمَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ الذي كَانَ صَرِيحاً فِي حَيَاتِهِ، أَنْ تَضْطَرَّهُ زَوْجَتُهُ إلى عَمَلٍ يَتَنَكَّرُ فِيهِ لِعَادَتِهِ فِي الصَّرَاحَةِ وَالمُجَاهَدَةِ، وَعَلِمَتِ الكُونتس بِخَبَرِ الوَصِيَّةِ فَجُنَّ جُنُونُهَا، وحَاوَلَتْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الحِيلَةِ أَوِ العُنْفِ أَنْ تَصِلَ إِلَى الوَصِيَّةِ لِتُعْدِمَهَا، وانْقسَمَ الأَبْنَاء فَرِيقَيْنِ، وأَضْبَحَتْ حَيَاةُ الفَيْلَسُوفِ وَهُوَ يَدرُجُ نَحْوَ قَبْرِهِ عَذَاباً لا يُطَاقُ!

وَفي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ لَيْلِ السَّابِعِ والعِشْرِينَ مِنْ تشْرِينَ الأَوَّلِ ١٩١٠ استَيْقَظَ الفَيْلَسُوفُ المُعذَّبُ لِيُفَاجِىء زَوْجَتَهُ وَهِيَ تَبْحَثُ بَيْنَ أَوْرَاقِهِ

ومخطوطاته، فثارت نفسه اشمئزازاً منها، ثم انتظر حتى عادت إلى مخدعها، فنهض من فراشه وارتدى ملابسه وحمل حذاءه ومشى على أطراف قدميه، وغادر المنزل، بعد أن أيقظ ابنته الكسندرا وطبيبه وبعض خدمه، وأنبأهم بعزمه على الرحيل، ليقضي الأيام الأخيرة من حياته في الهدوء والوحدة، وأفضى إلى ابنته بما ينتوي أن يفعل، وركب العربة مع طبيبه وبعض خدمه، في قلب الظلام، إلى المحطة، ومنها ركب القطار مع طبيبه نحو دير أوبتينا، حيث أمضى ليلته التالية، وأرسل برقية إلى ابنته في صباح ٢٩ تشرين الأول بمواصلة سفره إلى مقر أخته، ليقيم لديها قليلاً، وقد لحقت به ابنته مع صاحبة لها. وأحس الشيخ المسكين أنه مطارد وأن زوجته

لَنْ تلْبثَ أَنْ تهْتَدِيَ إلى مَكَانِهِ، فَقَرَّرَ مُواصلَةَ الرّحْلةِ بَعِيداً، مَعَ أَنَّ حالَتَهُ الوَاهِنَةَ لَم تكُنْ تَحْتَمِلُ مُتَابعَةَ السَّفَرِ، وَفي لَيْلَتِهِ تِلْكَ غَادَرَ الشَّيْخُ المَرِيضُ بَيْتَ أخْتِهِ، في جَوٍّ عَاصِفٍ مِنَ المَطَرِ والثّلجِ، لِيَسْتَقِلَّ مَعَ ابْنَتِهِ وَصَدِيقَتِهَا وَطَبِيبِهِ القِطَارَ اللّيْلِيَّ نَحْوَ (رستوف) وَلكِنَّ الحُمَّى أنْهكَتْ قِوَاهُ، وَزَادَتْ حَرَارَةُ جِسْمِهِ المَرِيضِ، فَقَرَّرَ المُسافِرُونَ النُّزُولَ في أَوَّلِ بَلْدَةٍ يَحُطُّ فِيهَا القِطَارُ، وَكَانَتْ (استابوفو) وَهِيَ قَرْيَةٌ على بُعْدِ خَمْسِينَ مِيلاً مِنْ ياسنايا، وَقَدَّمَ نَاظِرُ المَحطَّةِ غُرْفَةً في دَارِهِ للشَّيْخِ المَرِيضِ، وانْضَمَّ طَبيبُ القَرْيَةِ إلى طَبيبِ تُولستويَ، وَقَرَّرَا مَعاً أَنَّهُ مُصَابٌ بالْتِهَابِ الرئةِ، وَبَدأَ الشَّيْخُ يَسْعُلُ سُعَالاً مُتَّصِلاً، وَظَهَرَ الدَّمُ في بُصَاقِهِ، ولكِنَّهُ كانَ دائِمَ التَّسَاؤلِ عَنْ مُتَابعَةِ السَّفَرِ وَيَصِيحُ

فِي هَذَيَانِهِ: **«يَنْبَغِي أنْ نَرْحَلَ قَبْلَ أنْ يُدْرِكُونَا!».**

وَفِي اليَوْمِ التَّالِي تَنَاقَلَتْ أسْلاكُ البَرْقِ النَّبأ، **وأَصْبَحَتْ قَرْيَةُ استابوفو مَوْضِعَ اهْتِمَامِ العَالَمِ،** وَهُرِعَ إِلَيْهَا الأَقَارِبُ والأَصْدِقَاء وَرِجَالُ الصَّحَافَةِ، وَصَارَتْ أَنْبَاء الفَيْلَسُوفِ المُحْتَضَرِ تُنْقَلُ سَاعَةً فَسَاعَةً إلى عَوَاصِمِ العَالَمِ!

وَفِي اليَوْمِ السَّادِسِ مِنْ تشرينَ الثَّاني ١٩١٠ سَاءتْ حَالَتُهُ وَفَقَدَ وَعْيَهُ طَوَالَ النَّهار، وَفِي اليَوْمِ التَّالِي كانَ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الأَخِيرَةَ، وَقَدْ سُمِحَ لِزَوْجَتِهِ الكونتسِ أنْ تُوَدِّعَهُ، فَجَثَتْ إلى جَانِبِ سَرِيرِهِ لِتَسْأَلَهُ الصَفْحَ وَالغُفْرَانَ!

وَهَكَذَا أَغْمَضَ العَبْقَرِيُّ العَظِيمُ عَيْنَيْهِ فِي

السّابعِ مِن تشرينَ الثّاني عامَ ١٩١٠، بَعْدَ حَيَاةٍ طَويلَةٍ عَامِرَةٍ بالعَطَاء الفَنّيِّ والفِكْرِيِّ الخَالِدِ، وَالنِّضَالِ المُسْتَمِيتِ فِي تَحْقِيقِ الرِّسَالَةِ الكَبيرةِ التي عَانَى في سَبِيلِهَا مَا يُعَانِيهِ المُصْلِحُونَ وَأَصْحَابُ الرِّسَالاتِ، فِي صَبْرٍ عَلى الأَذَى، واحْتِمَالٍ للاضْطِّهَادِ، إلى آخِرِ لَحْظَةٍ في حَيَاتِهِ.

المحتوى

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب



سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بيروت ـ شارع سورية ـ بناية درويش
ص.ب: (٦٩١٨ ـ ١١)